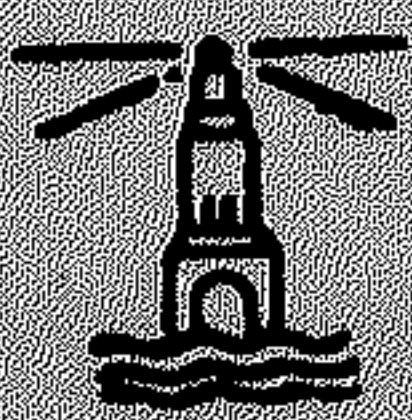
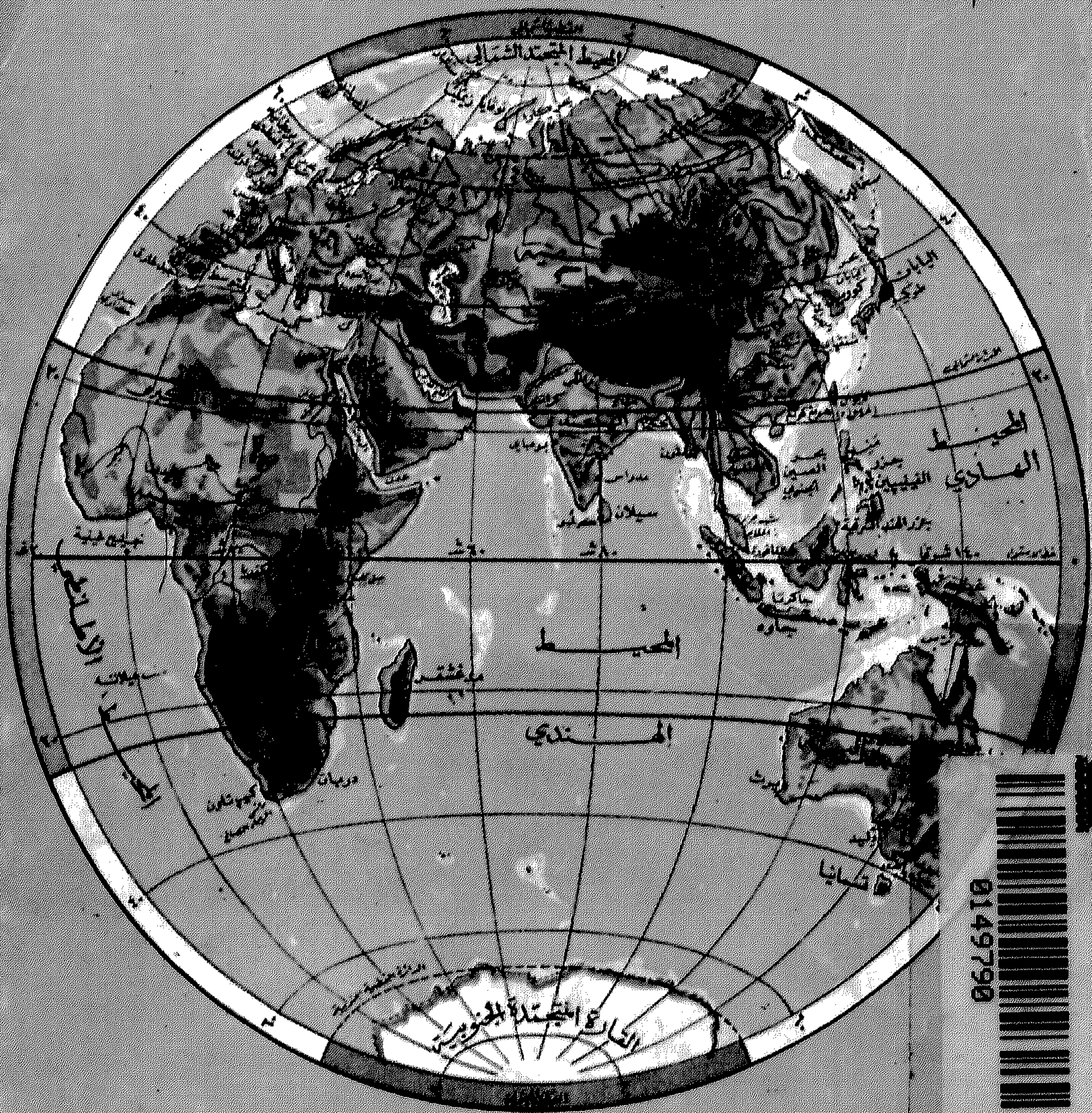


أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر



دار المعارف

دكتور
فاروق عثمان أبانطة

أثر تحول التجارة العالمية

أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجا، الصلح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر

للدكتور

فاروق عثمان أباطة

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية



دار المعارف

مقدمة

تعتبر حركة الكشف الجغرافية التي تم شطر كبير منها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي من أهم النتائج العملية للنهضة الأوروبية الحديثة ، التي ارتبطت بموجة التعصب الديني من قبل مسيحي أوروبا ضد العالم الاسلامي . وكان ذلك رد فعل للوجود الاسلامي في الاندلس الذي استمر قائما لمدة ثمانية قرون سابقة من ناحية الغرب ، وللحروب الصليبية التي شهدها عالم البحر المتوسط وامتدت بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين ، ولدور العثمانيين في السيطرة على القسطنطينية عام ١٤٥٣ من ناحية الشرق . وقد أدى اندفاع القوات العثمانية الى شرق ووسط أوروبا من جهة ، وإلى سواحل البحر الاسود وبلاد فارس من جهة أخرى ، الى سد الطرق التجارية الموصلة بين آسيا وأوروبا عبر هذه المناطق ، وأثر بالتالى في التجارة العالمية وطرقها ومراكزها ، مما حولها تماما الى موانئ مصر والشام المطلّة على البحر المتوسط، والتي كانت تسيطر عليها دولة المماليك آنذاك . وكانت الدولة المملوكية تستقل التجارة العالمية عبر الذراعين البحريين الممتدين الى أوروبا وهما الخليج العربى من جهة ، والبحر الاحمر من جهة أخرى . وكان لنهرى دجلة والفرات من الجهة الاولى ولنهر النيل من الجهة الثانية أثرهم البالغ في تسهيل حركة التجارة بحريا ، الى جانب طرق القوافل التي تربطهم برياً بموانئ البحر المتوسط في جانبيه الشرقى والجنوبى .

غير أن الغرب الاوربى في نهاية العصور الوسطى وخاصة في القرن الخامس عشر الميلادي كان قد مل التعامل مع المماليك بسبب كثرة الضرائب وارتفاع رسوم الجمارك وقوة الاحتكارات ، مما دفع الاوروبيين الى

البحث عن طريق آخر أكثر أمنا وأقل تكلفة وحققت هذا الهدف البرتغال التي اتجهت، في كشوفها للوصول الى الهند ناحية الشرق ، بعكس الاسبان الذين اتجهوا في كشوفهم الجغرافية ناحية الغرب ، فعبروا المحيط الاطلسي ووصلوا الى العالم الجديد . بينما اندفع بحارة البرتغال يحدوهم التحمس الديني فداروا حول افريقيا ووصلوا الى رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٨٧ ، ثم تمكنوا من الوصول الى الهند في سنة ١٤٩٨ . ومن خلال عدة معارك حربية تمكنوا من القضاء على نفوذ المماليك في البحار الشرقية ، وسيطروا على تجارة الشرق ، مما كان له أكبر الأثر على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، في المجالات الاقتصادية ، والسياسية ، والاستراتيجية . وسوف يضعف هذا الأثر تدريجيا منذ نهاية القرن السادس عشر وخاصة بعد انضمام البرتغال الى أسبانيا عام ١٥٨٠ ، وهزيمة الاسطول الاسباني الارمادا امام أسطول انجلترا عام ١٥٨٨ . اذ سيتحول مركز الثقل البحري والتجاري الى قوى أوربية أخرى تمثلت في هولندا وفرنسا . وسوف تتعاظم قوة انجلترا بوجه خاص في هذا المجال لتصبح في مقدمة القوى الاوربية التي ستنتجح في احياء الطريق التقليدي القديم عبر مصر والبحر المتوسط في نهاية القرن الثامن عشر .

والحقيقة أن أي مشغل بالبحوث التاريخية لا يغيب عنه معرفة جوانب كثيرة من هذا الموضوع ، غير انني أردت ببحثي هذا أن أضع هذه الجوانب مجتمعة تحت غلاف واحد ، وأن أقيم حجمه الحقيقي في احداث تغير في الواقع الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي الذي عاشته مصر وعالم البحر المتوسط ، منذ وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ وحتى نهاية القرن السادس عشر ، أو

بالأحرى نهاية الفترة التى ظهرت فيها انعكاسات هذا الحدث التاريخى الهام ، وردود الفعل المختلفة ازاءه ، والنتائج التى ترتبت عليه .

ولهذا فاننى سأعالج هذا الموضوع من الناحية المنهجية بتقسيمه الى ثلاثة فصول ، أولها ألتبع فيه التجارة العالمية عبر مصر وعالم البحر المتوسط قبيل تحولها الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر ، وثانيها ألتبع فيه دور البرتغاليين فى أحداث هذا التحول فى نهاية القرن المذكور ، وثالثها ألتبع فيه الآثار التى أحدثها هذا التحول فى مقدرات مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر من النواحي الاقتصادية ، والسياسية والدبلوماسية ، والاستراتيجية ، والتى انعكست على جوانب الحياة فى هذه المنطقة الحيوية من العالم لمدى بعيد فى تاريخها الحديث .

وقد استندت فى هذه الدراسة الى عدد من المصادر الوثائقية والمخطوطة المعاصرة ، والى عدد آخر من البحوث والمراجع المنشورة الموثقة . وكانت الوثائق المحفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، والتى تخص محكمة الاسكندرية الشرعية ، والتى ارفقت بالبحث عشرين وثيقة مختارة منها لم يسبق نشرها ، من أهم المصادر الوثائقية لهذه الدراسة ، فهى تعد مصدرا خصباً وثرياً للمادة العلمية ، كما تعتبر من أصدق وثائق تاريخ مصر فى العصر العثمانى . وقد قسمتها الى مجموعتين أولهما تتعلق بالنشاط التجارى للتجار المغاربة فى الاسكندرية وعددها ثلاث عشرة وثيقة ، وثانيها تتعلق بالنشاط التجارى للجاليات الأوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط المقيمين بالاسكندرية وعددها سبع وثائق . وتعود جميعها الى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى . وقد شرفت بتقديم هذا البحث فى ندوة « مصر وعالم البحر

المتوسط عبر العصور » التي نظمها سمنار الدراسات العليا للتاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة في الفترة من ١٣ — ١٥ أبريل ١٩٨٥ • وكنت بحق من أكثر المستفيدين من الحوار العلمي الذي دار حول الأبحاث التي قدمت في هذه الندوة ، خاصة واننى اقوم بتدريس مقرر « علاقات مصر الدولية بشعوب البحر المتوسط في العصور الحديثة » لطلاب الدراسات العليا بمعهد دراسات البحر المتوسط بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية كما اشرف على بحوثهم • وأرجو أن أكون بهذا البحث قد قدمت قراءة جديدة لموضوع تاريخى هام ، يجمع بين ثناياه أبعادا اقتصادية وسياسية واستراتيجية في آن واحد ، فضلا عن كونه محور تحول وانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة •

والله ولى التوفيق ،،،

د • فاروق عثمان اباضه

الفصل الاول

التجارة العالمية عبر مصر وعالم البحر المتوسط قبيل تحولها الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى

كانت التجارة العالمية الاتية من بلاد الشرق الى أسواق أوروبا طوال العصور القديمة والوسطى تظفر برواج واسع وتحقق أرباحا خيالية للمشغلين بها منذ شحنها في موانئ التصدير الآسيوية والأفريقية المطلّة على المحيط الهندى حتى يتم توزيعها في أسواق أوروبا . وكانت هذه التجارة تعبر مصر والشام لتصل الى عالم البحر المتوسط حيث تستقبلها الموانئ الأوروبية التى تقوم بتوزيعها في أسواق أوروبا . وكانت هذه السلع متعددة ومتنوعة ويتشكل قوامها من البخور ، والعطور ، والتوابل ^(١) . التى عرفت تجارتها باسم تجارة الكارم ^(٢) ، والعقاقير ، وألبس ، والاقمشة الحريرية ، والسجاجيد ، والعاج والاحجار الكريمة والاختساب النادرة التى يصنع منها أرقى أنواع الاثاث الفاخر والتحف الثمينة . فالتوابل كان في مقدمتها القرفة والجنزبيل والفلفل وجوز الطيب ، واستخدمت في اعداد الوان الطعام ، وأصبح عليه القوم من الأوروبيين لا يقبلون على طعام لم يمزج بالتوابل الشرقية ^(٣) . كما اقبلت النساء الأوروبيات على المسك والعنبر

(١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، ص ١٩٢ .

(٢) توفيق اسكندر (دكتور) : بحوث في التاريخ الاقتصادي (مترجم) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦١ ، ص ١٤٠ .

Howe, Sonia : In Quest of Spices, pp. 13,14

(٣)

وماء الورد وأطيب أنواع العطور والبخور والمنسوجات الحريرية الراقية ، وكانت تشاركهن في ذلك أيضا الكنائس في أوروبا ، أما العقاقير المتعددة الانواع مثل الافيون والكافور والصندغ وغيرها ، فكان الاوربيون يستخدمونها في اعداد الدواء ويكتبون عليها ما يدل على استيرادها من بلاد الهند أو بلاد العرب تأكيدا لجودتها (٤) .

وكان البن من أهم السلع الشرقية التي انفردت بلاد اليمن في العصور الوسطى بانتاجه ، واقبل عليه الاوربيون اقبالا متزايدا ، حتى كان هذا المحصول في القرون التالية موضع تنافس حاد بين شركة الهند الشرقية الانجليزية (١٦٠٠ — ١٨٥٨) وبين طلائع التجار الامريكيين الذين حاولوا احتكاره في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مما جعل بريطانيا تعمل على كسر احتكار الامريكيين لهذه التجارة وتحويلها من ميناء مخا اليمنى الى ميناء عدن الذي قامت باحتلاله في ١٩ يناير ١٨٣٩ . (٥) .

أما بالنسبة لتجارة الاقمشة الحريرية فقد عرفت في ديار الشام ومصر منذ القرن الاول قبل الميلاد حيث كان الرومان يحتلون تلك البلاد . وكان الحرير هو المادة الرئيسية في الاتجار بين العالم الروماني والصين ، اذ كان الحرير يشكل تسعة أعشار ما يستورده الرومان منها ، وكان يصل الى موانى صور وصيدا وانطاكية والاسكندرية . وفي الموانى الفينيقية كان يعالج بالاصباغ المختلفة ، وأشهرها الارجوان ، وعندها يصبح لباس

(٤) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوروبا في مطلع العصور
بجامعة عين شمس ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩ ، ص ٣٧٧ .

(٥) فاروق عثمان أباطه (دكتور) : التنافس الدولى في جنوب البحر الاحمر
في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ندوة « البحر الاحمر في التاريخ
والسياسة الدولية المعاصرة » التي أقامها سمنار الدراسات العليا للتاريخ
الحديثة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

الاباطرة ، وفيما بعد أصبح لباس كبار رجال الكنيسة • وظل انتاج الحرير حكرا على الصين ، والاتجار به خاضعا لمن يتولى شئون ايران الى أواسط القرن السادس للميلاد عندما حمل راهبان بعض بذور القز في جوف عصيها خفية الى الجانب الشرقى من حوض البحر المتوسط ، وعندها باشرت تلك المنطقة بانتاج الحرير • وانتشرت صناعة الحرير في لبنان بسبب جودة المناخ لزراعة التوت وحفظ الشرائق صيفا ومهارة الصناع في خدمة الحرير نسجا وصبغة • وكان الحجاج البنادقة والجنويون وغيرهم يعودون من الاراضي المقدسة حاملين معهم النسائج الحريرية التي كان الطلب يتكاثر عليها فتضطر مراكب البندقية الى المكوث طويلا في مرفأ صور في انتظار الفراغ من تجهيزها • وبعدما كانت الاقمشة الحريرية محصورة الاستعمال في تزيين المذابح وجدران الكنائس ، فقد انتشر استخدامها في قصور الامراء الذين تسربلوا هم ونساؤهم باللبسة الحريرية ، كما صنعت من الحرير الاعلام وأغشية الاسرة ، وازدانت بها الخيام وأماكن الاستقبال فنشط طلبها من الشرق نشاطا كبيرا (٦) •

وكانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى تسلك عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الاصلية في بلاد الشرق والتي يطل معظمها على المحيط الهندي حتى تصل الى الاسواق الاوروبية • وكان الحجم الاكبر من هذه التجارة يسير في طريقين اولهما : طريق البحر الاحمر الى السويس ثم الى القاهرة بالقوافل ، ومنها على ظهر السفن في فرع رشيد الى قرب مدينة الرحمانية ، ومن هناك الى الاسكندرية،

(٦) نقولا زيادة (دكتور) : الطرق التجارية في العصور الوسطى ، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم التي تصدر في بيروت السنة السادسة العددان ٧١-٧٢ ، سبتمبر - أكتوبر ١٩٨٤ ، ص ٣٨-٤٠ •

اما بالملاحة في ترعة كانت تصل ما بين النيل والاسكندرية أو على ظهر الدواب^(٧) . وثانيهما : طريق الخليج العربى ونهر الفرات ، ثم الى حلب ومنها الى الموانى الواقعة شرقى البحر المتوسط^(٨) . والى موانى مصر والشام وكانت تأتى سفن البنادقة والجنوبيين وغيرهم ، فتنقل سلع التجارة الى أوروبا . ولما كان سلاطين المماليك يحكمون مصر والشام في نهاية العصور الوسطى وحتى مطلع القرن السادس عشر ، فقد كان الطريقان في قبضتهم . وبذلك جنوا فوائد مادية عظيمة ، من الضرائب الكثيرة التى كانوا يفرضونها على هذه التجارة عند مرورها بالأراضي المصرية والشامية ، فضلا عن احتكارهم لكثير من سلعها المختلفة^(٩) .

ومنذ اواخر القرن الثالث عشر الميلادى بدا ملوك « أرغونة Aragon كذلك يحرصون على اقامة علاقات قوية مع سلاطين المماليك في مصر والشام من أجل رعاية شئون كاثوليكيى الشرق وفتح أسواق جديدة لأرغونة في مصر . وقد أثبتت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية في علاقات الاوروبيين بالمماليك ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى بحيث كان لكل من البندقية وجنوة وأرغونة تجارة نامية مع مصر ، وساعدتهم علاقاتهم التجارية الطيبة بالمماليك على التدخل لصالح المسيحيين الكاثوليك المقيمين في أراضى الدولة المملوكية آنذاك^(١٠) .

(٧) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٨) Wilson, A. T. The Persian Gulf, pp. 10, 13.

(٩) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، ص ٢٠٨ .

(١٠) قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة في مصر العصور الوسطى ، ص ٩٧—٩٨ .

وكانت مدينة القاهرة عاصمة العالم التجارية في عصر سلاطين المماليك خاصة بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشرق والغرب في ذلك العصر نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقي طريق مصر والبحر الأحمر وحده بعيدا عن تهديدهم ، الأمر الذي مكن سلاطين المماليك من احتكار التجارة الشرقية وخاصة تجارة القوابل . وقد عاد ذلك على المماليك وعلى عاصمتهم القاهرة بثروة فائقة ، (١١) بحيث اكتظت بالقصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات والحمامات ، والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات . وقد اكتظت القاهرة بالمماليك وهم الطبقة الحاكمة والسائدة في البلاد ومعظمهم من الترك والجرأكسة ، ومن المواطنين المصريين ومنهم العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعامّة من المسلمين وأهل الذمة ، فضلا عن الأجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم ، الذين وفدوا على مصر من مشارق الأرض ومغاربها ومن البلاد الإسلامية والمسيحية سواء . وكثرت في القاهرة في العصر المملوكي الاحتفالات والمواكب ، واتصفت الحياة اليومية في شوارع القاهرة بكثرة الباعة الجائلين ، هذا عدا المارة من النساء اللاتي تمتعن بحرية واسعة في الخروج من بيوتهن ، فكن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن أو يترددن على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأنسن ببعضهن ويقضين الساعات يتناقلن أخبار البيوت وأسرار العائلات (١٢) . وإذا كان أهل

(١١) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المملوكي في مصر والشام ،

ص ٢٨٤ .

العصور الوسطى ، محاضرة ألقى بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية —
المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ ، ص ١٧٣ .

القاهرة قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتسلط طائفة المماليك على عامة الاهالى من المصريين ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الاسعار وانتشار الوباء ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم ، فان ذلك كله لم يفقد أهل القاهرة روح المرح وتعدد وسائل التسلية والترويح عن النفس ، كالخروج الى الحدائق والى شاطئ النيل ومشاهدة خيال الظل والعباب الحسوة والقردة وغيرها (١٣) . وقد قيل عن مجتمع القاهرة فى عصر سلاطين المماليك أنه كان ذا واجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى والتدين ، وباطنه الانم والفساد . فرغم أن القاهرة صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت فى بغداد على أيدي التتار ، الامر الذى جعلها محورا لنشاط دينى فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية الضخمة مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها ، فقد انتشرت فيها من ناحية أخرى الامراض الخلقية المختلفة (١٤) ، وكان ذلك ناتجا عن اكتظاظ المدينة بالسكان ، ووفود نسبة كبيرة من الاغراب اليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالاشراف عليها فضلا عن الثورة الكبيرة التى هبطت على ذلك المجتمع من عوائد التجارة وجعلت القاهرة عاصمة العالم التجارية ، وقد اعتبر ابن خلدون ان هذه الثروة الكبيرة كانت السبب وراء تلك الانحرافات (١٥) . وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر من

(١٣) ابن اياس : محمد بن أحمد : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك ، ص ١٥٣ .

(١٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٨ .

أبرز العوامل التي أثرت على مدينة القاهرة وعلى النشاط الاقتصادي والاجتماعي لسكانها •

وقد ظهر تنافس شديد بين القاهرة والاسكندرية حتى نهاية العصور الوسطى في بيع وتوزيع سلع الشرق وبيع الغرب من التجارة العالمية ، ولكن ظلت القاهرة نقطة تجميع السلع ، ومركز توزيعها شرقا للسلع الغربية وغربا للسلع الشرقية والمحلية ، نظرا لتوسط مركزها ، كما كانت أقصى ما يصل اليه التجار الاجانب الوافدين لمصر ، حتى أنه قد نص على ذلك في المعاهدات التجارية بين مصر والدول الأوروبية (١٦) • وقد خصصت بالقاهرة أحياء معينة لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والغربية ، وللتجار فيها مخازن وقياسر ووكالات وفنادق وأماكن خاصة لدوابهم ، لاسيما الوافدين من الشام أو بلاد العرب أو السودان وأحيانا من فارس • وقد زار القاهرة في أواخر القرن الخامس عشر بعض الرحالة الاجانب ووصفوا مدى الازدهار التجاري الذي عاشته المدينة في العصر المملوكي حتى بداية القرن السادس عشر (١٧) •

ويقترن بذكر القاهرة مينائها الهام على النيل عند بولاق والذي ظل الميناء الرئيسي للقاهرة على النيل حتى أواخر العصور الوسطى • وتتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب ، فتصله من الاسكندرية عن طريق فرع رشيد ، ومن موانئ الشام عن طريق فرع دمياط ، ومن الجنوب سلع الحبشة والنوبة ، وموانئ البحر الاحمر • ووجد

Heyd, W. : Histoire du Commerce du levant au Moyen Age, (١٦)
T. II., pp. 434, 435.

Howe, Sonia : Op. Cit., p. 99. (١٧)

بميناء القاهرة مخازن ومتاجر ووكالات واسعة ، كما وجد بها رجال الحكومة
وعمال الجمر ك بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجارة •
ولجمر كها باب خاص بالمسافرين تفحص فيه حقائبهم ويدفعون ١٠٪ عما
فيها ، «ودوكين» للمسافر العادي ، وخمسة للحاج ، مع دقة مراقبتهم ،
مما كان يشكل حصيله كبيرة للخزانه المملوكية (١٨) •

أما بالنسبة لميناء الاسكندرية وأهميتها على طريق التجارة الدولية
عبر مصر وعالم البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر ، فقد كانت
بحكم موقعها على هذا البحر تفوق القاهرة في اتصالها بأوربا مباشرة •
وكانت المدينة تزدهم طوال العام بالاجانب الوافدين اليها للتجارة أو
للمعبور للحج للاماكن المقدسة في سيناء وفلسطين • وكان لدول أوربا وعالم
البحر المتوسط بصفة خاصة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق
بالاسكندرية يمارسون فيها حياتهم الخاصة في حرية ، وكان السلاطين
المماليك قد سمحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القرن
الرابع عشر الميلادي بعد دفع رسم سنوي للسلطان • ومن أشهر الفنادق
التي كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق اهالى مدينة ناربون ،
وفندق البنادقة ، وفندق القطلونيين • وكانت الاسكندرية قد خلفت مدينة
دمياط كميناء مصر الاول على البحر المتوسط منذ النصف الثاني من القرن
الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءا من الميناء وردموا فم بحر دمياط
حتى يأمنوا أى غزو أوربى منه ، لذا لم يعد فى استطاعة السفن الاوربية
الكبيرة الوصول اليها ، وأصبحت ترسو بالبحر قريبا من مصب فرع دمياط
وتستخدم القوارب النيلية بينها وبين الميناء •

(١٨) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٩ •

ولهذا شهدت مدينة الاسكندرية أروع أيامها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وخاصة بعد عام ١٤٥٣ حتى أن إيرادات الحكومة كان معظمها من جمرك الاسكندرية التي كانت تتراوح يوميا في فترات «مابين» ألف وألفي دينار عدا رسوم السفن والسياح والحجاج .^(١٩) والمدينة لاتقل اتساعا وأهمية عن أكبر مدن البحر المتوسط التجارية مثل البندقية وجنوة ومرسيليا ، ولها عدة أبواب يفتح أحدها الى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن الوافدة من أوربا ، ومرسى السلسلة للسفن الوافدة من شمال افريقيا ، وتقل فيه رسوم الجمارك عن المرسى الاول . والى الشرق من ميناء الاسكندرية يقع ميناء (أبوقير) عند بحيرة تعرف باسم (رأس المعدية) ويتصل الميناء بقناة تصل للبحيرة . ويبعد الميناء حوالى ثمانية أميال شرقى الاسكندرية . وميناء أبوقير يعد مرفأ للسفن السورية القادمة للاسكندرية وتدخله السفن الصغيرة ، أما السفن الكبيرة . فتتصل به من البحر بواسطة القوارب^(٢٠) .

وكانت لمدينة رشيد أهمية خاصة عند سلاطين المماليك ، حيث كانت الميناء الكبيرة للبحرية المملوكية مما جعل السلطان قونصوه الغورى (٩٠٧ — ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ — ١٥١٦ م) يشيد بها سورا وأبراجا لحفظها . وكان محظورا دخول الاجانب الى رشيد نظرا لصفقتها الحربية^(٢١) ، وان كان السلطان الغورى قد سمح للتجار البنادقة بالدخول اليها والاستقرار فيها ، فضلا عن إقامة فندق لهم هناك ، نظرا لتفوق تجارتهم مع السلطنة

(١٩) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٢٠) نعيم زكى فهمى (دكتور) : نفس المرجع ، ص ١٣١ .

(٢١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٦٥ .

على سائر الدول الاخرى (٢٢) . وقد نقل النشاط التجارى منا الى ميناء بلدة فوة التى تتصل بالاسكندرية بقناة ملاحية ظلت تستخدم حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادى . كما كانت تخرج من جنوبى رشيد قناة تصل الى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط ، وهو مفتوح للملاحة طوال العام ، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية والغربى للسفن الاسلامية وكانت الموانى تتبع نائب الاسكندرية الذى يحصل مندوبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع . وقد اعتنى العثمانيون عقب فتحهم لمصر فى سنة ١٥١٧ بمدينة رشيد وقام بزيارتها السلطان سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠) وأنشأ بها الوالى العثمانى سليمان باشا الخادم (٩٣١ — ٩٣٤ هـ / ١٥٢٤ — ١٥٢٧ م) قيسارية وفندقا ، كما أنشأ داود باشا (٩٤٥ — ٩٥٥ هـ / ١٥٣٨ — ١٥٤٨ م) فندقا آخر سمى خان داود باشا ، كما أنشأ على باشا فندقا عام (٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م) بالاضافة الى خانات أخرى بفوه ، كما عمر وكالة كبيرة فى رشيد (٢٣) .

ومن أشهر موانى مصر كذلك ميناء دمياط النهري البحرى ، وهو مخرج تجارة مصر لمدن وموانى الساحل الشرقى للبحر المتوسط والاناضول وكريت وقبرص ، كما يتصل بالقوافل البرية الى موانى البحر الاحمر . ولا تدخل السفن ميناء دمياط مباشرة بسبب شدة التيار من النيل ، وكذلك لردم جزء من فم البحر عندها . انما يخرج من دمياط قناة الى بحيرة المنزلة حتى تدخل اليها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على

(٢٢) جيرار ، ب.س : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٨ ، المجلد الرابع ، ص ٢١٠ .
(٢٣) صلاح احمد هريدى على (دكتور) : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد فى العصر العثمانى ، دراسة وثائقية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان الثلاثون والواحد والثلاثون ، ١٩٨٣ — ١٩٨٤ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

بعد سبعين ميلا من البحر المتوسط ومثلها من قناة دمياط ، وهي في الواقع مركز تبادل السلع الواردة الى دمياط والصادرة منها • واشتهرت دمياط وضواحيها بخصوبة التربة ووفرة انتاج قصب السكر وصناعة السكر بصفة خاصة • وقد أرسل فرسان الاسبتارية في رودس قنصلا لهم في دمياط ليرعى الشئون التجارية ، كما وجد بدمياط عدد كبير من الاجانب اليونانيين والبنادقة والجنوبيين والفلورنسيين • وظلت قنصلية رودس قائمة حتى افتتح العثماني لمصر عام ١٥١٧ (٢٤) • وعلى مقربة من دمياط يوجد ميناء البرلس الذي اشتهر بصيد البوري وتصديره مملحا الى رودس بصفة خاصة • وفي عامي ١٥٠٧ و ١٥٠٨ م دعا السلطان قونصوه الغوري التجار الفلورنسيين لزيارة دمياط والاسكندرية والبرلس • وفي بداية القرن السادس عشر كان للبندقية قنصل في البرلس لرعاية النشاط التجاري للبنادقة هناك (٢٥) •

هذه هي أبرز موانئ مصر المطلة على البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين ، بالاضافة الى القاهرة عاصمة السلطنة المملوكية التي كانت مركزا للتجارة العالمية آنذاك •

اما بالنسبة لموانئ مصر المطلة على البحر الاحمر فقد كان في مقدمتها ميناء السويس ، الذي كانت تصل اليه السفن التجارية الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والاحجار الكريمة والعنبر والمسك ، ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى القاهرة ، ثم بالنيل الى الاسكندرية • على ان هذا الميناء التجاري لم يلبث ان تحول واصبح

(٢٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٢ •

Heyd, W. : Op. Cit., pp. 228, 229.

(٢٥)

ميناء مصر الحربى على البحر الاحمر وبنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة الى المياه الشرقية ، ومنه تحركت سفن الاسطول المملوكى لمحاربة البرتغاليين فى المحيط الهندى فى مطلع القرن السادس عشر ، وكذلك سفن الاسطول العثمانى خلال القرن المذكور (٢٦) . وعندما صارت السويس مرغاً مصر الحربى على البحر الاحمر فقد استقر رأى السلطات المملوكية على أن يحل ميناء الطور محلها فى التجارة فضلاً عن ميناء القصير الذى يربطه طريق القوافل الى قنا على نهر النيل ومنها الى القاهرة . وقد اتبع فى ميناء الطور نفس النظام الذى كان لميناء السويس فسفن الهند لا تصله انما تفرغ حمولتها فى عدن وفيما بعد فى جدة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ثم تنقل السلع الى الطور بالقوارب ومنها بالقوافل الى القاهرة . وكانت سفن التجاره الهندية تصل الى جدة مرتين فى العام ، وفى كل مرة ينشط العمل فى ميناء الطور (٢٧) . فضلاً عن اهمية الميناء التجارية فهو المحط الرئيسى للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر من دير سانت كاترين بسيينا ، وللحجاج المسلمين المتوجهين الى مكة والمدينة المنورة . وكان الحجاج المسيحيون يهتمون خاصة بمواعيد وصول سفن التجاره الى الطور ، نظراً لان البندقية كانت تضع توقيتاً لسفنها التجارية بالاسكندرية يتفق مع حساب فرق الوقت والتوزيع من الطور للقاهرة ثم للاسكندرية ، وحتى يستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون أوروبا اللحاق بقوافل التجارة الى القاهرة والرحيل الى أوروبا على سفن البندقية التى تنتظر المتاجر فى الاسكندرية (٢٨) .

(٢٦) Hammer, J. : Histoire de L' Empire Ottomane,, Tome 5, pp. 301, 302.

(٢٧) Heyd, W. : Op. Cit., pp. 440, 442 .

(٢٨) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

وتجدر الإشارة كذلك الى التجارة التي كانت ترد الى مصر والشام من الجزيرة العربية والتي كانت تختلف عن طبيعة منتجات وادى النيل • فالجزيرة العربية كانت تحتاج الى المنتجات الزراعية بوادى النيل الخصيب كالحبوب بانواعها ، بينما كانت الجزيرة العربية تصدر الى مصر والشام البن الذى تجود زراعته فى بلاد اليمن • وبالإضافة الى ذلك كانت هناك فى الجزيرة العربية حركة تجارية كبيرة للسلع الهندية كالتوابل واعشاب التي تصلح كعقاقير فضلا عن نوعيات الاقمشة التي كان يحضرها التجار الاسيويون من بلادهم (٢٩) • الى مكة والمدينة المنورة وخاصة فى موسم الحج • وكان ميناء القصير وميناء السويس يستقبلان كثيرا من تلك السلع الاسيوية الواردة الى الجزيرة لعربية ، كما كانتا تصدران الى الجزيرة القمح والدقيق والفل والعدس والسكر والزيوت ، وكان عرب الجهات القريبة عرب الطور ، وعرب الحويطات يترددون على السويس للبيع والشراء ، فيبيعون لاهلها سلع البادية من سمن ونحوه ، ويشتررون سلع المدينة من ثياب وغيرها • وكانوا يكثرون بها فى موسم الحج خاصة لبيع بضائعهم للحجاج ثم يعودون الى اقاليمهم • وقد غلب على سكان السويس عنصر التجار ووكلائهم ، فكان يقيم بها وكلاء عن تجار القاهرة والاسكندرية ووكلاء عن تجار الهند واليمن والحجاز والسودان (٣٠) •

وجدير بالذكر ان طريق الحج كان سببا فى احياء موانئ السويس والقصير والطور وعدم هجرهم حتى بعد تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس

(٢٩) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٥ — ١٣٦ •

(٣٠) ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتوره) : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر

والشام اذ ان العصر العثمانى ، ص ١١٢ •

عشر الميلاديين (٣١) * اذ ظلت السويس معبرا لتجارة مصر مع بلاد اليمن والحجاز والتي تجمعت فيها سلع كثيرة شرقية أحضرها معهم الحجاج من سائر انحاء آسيا وأفريقيا (٣٢) * فكانت كل هذه المتاجر تمر بالسويس ومنها على ظهور الدواب الى القاهرة ، وكانت تصل الى السويس مجموعات عديدة من السفن على مدار العام * وكانت السويس مقرا لجمرك هام يقيم فيه المقومون المثلثون الذين يقدرون اثمان البضائع ، فيؤخذ على المائة عشرة * ومن البضائع التي كانت ترد الى ميناء السويس الحرير الهندي ، والقطن الهندي ، والقطن السواكني ، والفلفل ، والحبهان ، والبن ، والزنجبيل ، والقرفة ، وجوز الطيب ، وجوز النارجيل ، والنيلة الهندية ، والعقاقير ، والقلويات المستعملة في الصابون والفحم السعال ، والسمن الشحى ، والكافور ، واللالي ، والطيور والقروود ، والظباء ، والغنم البرية *

ولما كانت رياح الجنوب تسود عادة البحر الاحمر منذ بداية ديسمبر وحتى منتصف فبراير ، فان موسم ارسال السفن الشراعية يتم تجاه الشمال من جدة وينبع الى السويس * وفي بقية العام تهب الرياح من المنطقة الشمالية ، وعندئذ يمكن ارسال السفن تجاه الجنوب من السويس الى الجزيرة العربية * وعندما تكون الرياح مواتية تصل السفينة من جدة الى السويس في خمسة عشر او ستة عشر يوما ، في حين ان المدة التي تستغرقها الرحلة العادية تبلغ عشرين او اثنين وعشرين يوما ، وتكون خمسة وعشرين

Crouchley, M. E. : The Economic Development of Modern Egypt, P. 34. (٣١)

Shaw, S. J. : The financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, P. 138. (٣٢)

او ستة وعشرين يوما بالنسبة للسفن القادمة من ينبع (٣٣) •

وبالنسبة لعملية نقل البضائع الواردة من السويس الى القاهرة ، فقد كانت تحتكر نقلها اربعة قبائل نسلك كل منها طريقا مختلفا هي قبائل طرابين ، والحويطات ، وعرب الطور ، والعايدي • ويقدم هؤلاء العرب الجمال بحمايلها ، وعددا مناسبا من قائدي الجمال الذين يخضعون لاوامر شيخ العرب • ويحمل الجمل الواحد من السويس الى القاهرة من خمسة الى ستة قناطير من البن ، وكانت في السويس ثمانى عشرة وكالة مخصصة لسكنى التجار الاجانب ولكي يستخدمونها كمخازن • وكانت شوارع بندر السويس نظيفة ومبانيها منتظمة وبها ثلاثة ميادين ، وقد أثر النشاط التجارى على المدينة فبدت أفضل من غيرها من المدن المصرية في القرن الخامس عشر •

وتجدر الاشارة الى أن السويس كانت في نهاية القرن الخامس عشر مقر لجمرك هام عرف باسم « جمرك عشور أصناف بهار وتوابعها » ، وكان هذا الجمرك يثرى الخزانة المملوكية الى جانب جمرك الاسكندرية وجمرك رشييه وجمرك دمياط وجمرك البرلس ، وكان الاخير يختص بالمقاجر الواردة من الدلتا ومن الصعيد •

بذلك كانت تصل الى مصر عن طريق الصعيد القوافل التجارية الآتية من داخل افريقيا مثل قافلتي دارفور وسنار (٣٤) ، وكانتا تسهمان في تجارة الرقيق والعاج والصمغ ، والتمر هندی ، وجلود الكركدن • وتصل

(٣٣) ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتوراه) : دراسات في تاريخ ومؤرخى مصر والشام ابان العصر العثمانى ، ص ١٢١ •

(٣٤) صلاح هريدى على (دكتور) : دور الصعيد في مصر العثمانية (١٢٣) ٩٢٣

— ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ — ١٧٩٨ هـ (١) ، ص ٢٧٨ •

هذه القوافل الى أسوان التى كانت ميناء ماما على النيل عبر العصور — ثم تصل الى أسيوط حيث كانت تفرض عليها ضرائب تقدر على الرقيق والجمال وما تحمله من سلع ، ثم تنقل البضائع بعد ذلك فى قوارب عبر النيل الى القاهرة • وكانت تباع فى أسيوط معظم الجمال التى تصاحب القوافل، ويحتفظ بما يقرب من خمس عددها، ليستخدمة التجار فى رحلة العودة الى دارفور وسنار ، وكانت تتم الرحلات مرات عديدة فى كل عام • وكان التجار الافارقة يحملون معهم من القاهرة فى رحلة العودة الى بلادهم السلع المختلفة من الاقمشة ولوازم الخيول ، والبن ، والسكر والاسلحة والمعادن والرجاج الملون ، وكان بعض هذه السلع يصل الى مصر من أوروبا عن طريق البنادقة (٣٥) •

وكانت تربط السلطنة المملوكية بمشوك افريقيا علاقات تجارية مع بلاد التكرور أو مالى ، وسلطنة برنو أو كانم ، ومملكة غانة ، ومملكة سنغاي • ومن أشهر تجارة الممالك مع دول افريقيا الصناعات المصرية على وجه الخصوص ، مثل تطعيم المعادن والجواهر ، أو ما كان يطلق عليه الترميك أو التكفيت ، وهى صناعة دقيقة أصبح للقاهرة أسلوب خاص فيها فى صناعة الاوانى النحاسية ، كالاباريق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج • وكذلك صناعة السرج التى كانت لها سوق خاصة ، وصناعة السجاد التى بلغت عاية الرفى ، وصناعة الزجاج ، وان كان أشهرها على الإطلاق صناعة الاقمشة التى كانت تصنع فى مصانع النسيج الحكومية المسماة طراز •

وتجدر الاشارة كذلك الى طرق القوافل التى كانت تربط بين بلدان

المغرب العربي المطلة على الجانب الغربى من البحر المتوسط ومصر ، وهى تلك الطرق التى تسلكها قافلة الحج والتى تمر باقاليم المغرب الساحلية المختلفة (٣٦) . وقد كانت هذه القافلة فى نفس الوقت هى قافلة تجارية نظرا لان الحجاج المغاربة كانوا يحملون معهم اسلع المغربية ليبيعوها فى المدن والقرى المصرية التى يمرون بها أثناء رحلتهم ، وكذلك يفعلون فى المدن الشامية فى شرقى البحر المتوسط ، وفى موانئ ومدن الحجاز . وفى طريق عودتهم من رحلة الحج كان التجار المغاربة يحملون معهم السلع المشرقية المختلفة من جازية وهندية وشامية ومصرية ليبيعوها فى بلادهم عليهم يحققون ربحا يعوض لهم ما أنفقوه فى رحلة الحج (٣٧) .

بل انه قد وجد كذلك طريق اخر كانت تتبعه قافلة فزان المغربية ، عن طريق الصحراء الغربية ، فواحات الخارجة ، فاسيوط ، فالقاهرة (٣٨) . وكانت هذه القافلة تأتى بالبلح والطرابيش الحسوفية ، وتعود محملة بالمنتجات المصرية ، وما تجمع فى مصر من تجارتها مع الجزيرة العربية (٣٩) . على ان كثير من المغاربة أسقروا فى مصر وعملوا فى مجالات التجارة والحرف بها ، ويرجع ذلك الى الظروف التى تعرضت لها بلاد المغرب فى

(٣٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر (فى العصر العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) ، ص ٢٦ — ٢٧ .
(٣٧) ليلى صباغ (دكتوره) : الوجود المغربى فى المشرق المتوسط فى العصر الحديث ، ص ٨٩ .

(٣٨) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية ابان العصر العثمانى (١٥١٧ — ١٧٩٨) ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، تصدر عن جامعة الكويت ، العدد التاسع ، المجلد الثالث ١٩٨٣ ، ص ١٤ — ١٥ .

نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة مما جعل المغاربة من أبرز الجاليات الإسلامية في مصر العثمانية . وقد لعبت المدن المغربية دورا هاما في التجارة العالمية في نهاية العصور الوسطى وخاصة في عهد الموحدين (٥٤١ — ٦٦٧ هـ / ١١٣٠ — ١٢٦٩ م) حيث دانت بلاد المغرب تموج بنتشاط تجارى داخلى وخارجى ، واسع النطاق ، تسارت القوافل متواصلة ما بين البلدان المغربية ، وأفريقيا والسودان ، لاستيراد المواد الأولية والاستوائية ، وكذلك الذهب والرقيق ، كما كانت طرق التجارة مع بلدان المشرق الاسلامى ، البرية والبحرية ميسره حيث كانت تمر عبر أراضي مصر وموانئها التى تحتل موقعا وسطا . وذات المدن والموانئ المغربية هى المصدر الاول للمدن الايطالية وغيرها من بلدان أوروبا الراغبة في التجارة الافريقية والشرقية . وقد أثرت المدن ثراء ضخما من وراء هذا النشاط التجارى ، على أساس أنها أصبحت تقوم بדרך الوسيط في نقل السلع الافريقية والشرقية . وقد أثرت المدن اثراء ضخما من وراء هذا النشاط والنشاط التجارى اللذين حظبت بهما بلدان المغرب العربى ، الى الموقع الجغرافى الخاص الذى احتله المغرب ، وأثر تأثيرا بالغا في تطور المسالك التجارية المغربية جنوبا وشمالا ، وغربا وشرقا ، مما جعل مساهمة بلدان المغرب الاسلامى في التجارة العالمية ذات أهمية بالغة ، كما كان لهذا الموقع أثره في علاقات بلاد المغرب الحضارية بمنطقة البحر المتوسط وخاصة بمصر . على أن العامل الاقوى وراء دور المغرب الاسلامى التجارى والحضارى في منطقة البحر المتوسط — مع عدم انكار أهمية الموقع الجغرافى — إنما يرجع الى استمرارية اتصاله بالشرق الاسلامى ، حضاريا وثقافيا ، وتجاريا هذا الى جانب الثنائية الاقتصادية التى شهدتها المغرب العربى في العصور الوسطى ، من ارتباط الفلاحة بالتجارة ، نظرا لان كثيرا من المواد الفلاحية،

أصبحت بضائع أساسية في قائمة التبادل التجاري ، ولاسيما بالنسبة لتجارة الصحراوية مثل : الحبوب ، والتمور ، والزبيب ، والصوف، وقصب السكر وغيرها . بالإضافة الى الاستقرار السياسي الذي عرفه المغرب في بعض فترات تاريخه في العصر الوسيط الاسلامي ، حيث ساهم هذا الاستقرار في تطور المسالك التجارية وأمنها . ولم تحل النظم السياسية المختلفة دون الالتحام بين مراكز التجارة في البلدان المغربية ، بل انهما حاولت ان تحقق لها الامن وتستغلها اقتصاديا في تدعيم مركزها السياسي والتجاري (٤٠) . على أن الجزء الأكبر من عائد هذا النشاط التجاري الذي شهدته بلدان المغرب ، عاد الى فئات بعينها دون عامة الشعب ، وبخاصة فئة الحكام والرؤساء ، وفئة التجار ، التي ظهرت كقوة اجتماعية جديدة حيث عاش سكان المراكز التجارية معيشة فيها شيء كثير من الرفاهية والرخاء ، بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة لسكان الريف والمناطق الصحراوية (٤١) .

وتجدر الإشارة الى أن المغرب العربي قد تعرض للتفكك السياسي بعد انهيار دولة الموحدين (في سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩م) في جميع بلدانه ، حيث أصبح هناك ثلاث دول مهيمنة هي الدولة الحفصية في تونس ، ودولة بني زيان في الجزائر ، ودولة بني مرين في مراكش ، وكان النزاع بين هذه الوحدات السياسية التي انقسم اليها المغرب مستمرا، هذا الى جانب طرابلس التي قام النزاع بينها وبين الحفصيين ، بل ان النزاع كان قائما في داخل

(٤٠) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة في مصر في العصر العثماني ، ص ١٢ - ١٤ .
(٤١) جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، ص ٥ .

الدولة الواحدة ، كما كان يحدث في المناطق الشرقية من الجزائر وفي منطقة بلاد القبائل . وسوف يؤدي هذا التفكك السياسي والصراع الداخلي إلى هجرة كثير من المغاربة إلى المشرق عامة وإلى مصر بصفة خاصة حيث عملوا في مجال التجارة والحرف في الاسكندرية وغيرها من موانئ الجانب الشرقي من البحر المتوسط ، فضلا عن كثير من المدن الداخلية . وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أن نزوح كثير من أهل المغرب إلى مصر إنما كان يعود إلى حالة الرفاهية التي كانت تشهدها مصر في العصر المملوكي نتيجة لمرور التجارة العالمية بها فيقول : « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من انترف والغنى في عوائدهم ما يقضى منه العجب ، حتى أن كثيرا من الفقراء بالمغرب ، ينزعون من الثقل إلى مصر لذلك ، ولما يبلغهم من أن شأن الرنة بمصر أعظم من غيرها » (٤٢) . ولهذا فإن معظم التجار والحرفيين المغاربة ، والقبائل المغربية ، الذين وفدوا إلى مصر واستقروا فيها أو مارسوا نشاطهم لفترة وعادوا إلى بلادهم كانوا من أبناء المدن والمناطق المغربية التي أصيبت بنكسة اقتصادية سواء نتيجة لعمليات الغزو الإسباني أو بسبب الصراعات الداخلية . وقد استقر هؤلاء في مدن مصر وريفها ومارسوا نشاطاتهم المختلفة من تجارية أو حرفية أو رعوية أو زراعية ، كما تزود بعضهم بزيادة المعرفة والعلوم الدينية في الأزهر الشريف ، في وقت انتشرت فيه الفرق الصوفية المتعددة التي جعلت أتباعها يتعلمون على أيدي رجال الطرق الصوفية من المصريين . كما أن رغبة كثيرين من المغاربة لاداء فريضة الحج أدت إلى توجيههم إلى مصر وبلاد المشرق بصفة

(٤٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٦٢ .

مستمرة واشتراكهم الواضح فى الحياة الاقتصادية والثقافية مع المصريين وأهالى المشرق الاسلامى (٤٣) .

وتجدر الإشارة الى أن مدينة الاسكندرية كانت بالنسبة للمغاربة محطة أساسية لهم حيث كانت تقع على طريق الحج والتجارة ولهذا فانهم أنشأوا واستأجروا بها الوكالات والمخازن لتخزين السلع التى يجلبونها من الهند والمشرق الأقصى وموانئ شبه الجزيرة العربية والموانئ الواقعة فى الجانب الشرقى من البحر المتوسط كما كون المغاربة تنظيماتهم الاجتماعية فى الاسكندرية وأخذوا يؤدون دورهم فى بيئتها الحضارية فى العصور الوسطى (٤٤) والحديثة . وينطبق اهتمام المغاربة بالاسكندرية على موانئ مصر الاخرى الواقعة على البحر المتوسط مثل رشيد ودمياط ، او تلك الواقعة على البحر الاحمر مثل السويس والقصور . بل انهم ربطوا هذه الموانئ عن طريق عمليات الاستيراد والتصدير بالموانئ التجارية العربية الاخرى والموانئ الاوربية التى كان لهم فيها وكالات تجارية ، كما كان لهم وكلاء يقيمون بهذه الموانئ (٤٥) .

وتجدر الإشارة كذلك الى الجاليات الاجنبية الاخرى التى كان لها نشاطا تجاريا ملحوظا فى الموانئ المصرية المطلة على البحر المتوسط والتى لقيت عناية كبيرة من قبل المماليك فى نهاية العصور الوسطى والعثمانيين

(٤٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٢٧ .

(٤٤) سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الاثر المفرى والاندلس فى المجتمع السكندرى فى العصور الاسلامية الوسطى ، ص ٢٠٧ .

(٤٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٥٨ .

في العصور الحديثة • فقد أنشأت السلطات المملوكية على نفقتها فنادق خصصتها للتجار الاجانب • وكانت الاسكندرية تضم عدة فنادق لجاليات اجنبية مختلفة ، أولاها وأهمها جالية البنادقة ، ولهم فندقان ، على حين كان فندق واحد لكل من أهل جنوه ، وبيزا ، وفلورنسا ، وأنكونا ، وبالرمو ، وكان لاهل نابلى فندق بالاشتراك مع آخرين من الايطاليين • أما الفرنجة فكان لهم فنادق خاصة بهم ، ولاسيما أهل مرسيليا وناربون وقطالونية وراجوزة • ورغم أن جزيرة كانديا كانت إحدى مستعمرات البندقية الا انه وجد لها فندق خاص • وكان لمملكة قبرص قبل غزوة بطرس لوزينان وليونان الاسكندرية فندق ، وللاتراك فندق ، وكذلك فندق لكل من المغاربة ، والنتار والمعروف أن النتار بصفة خاصة كانوا يجلبون الرقيق للتجارة فيهم ولذا كان فندقهم عبارة عن سوق للرقيق (٤٦) •

وحرصت السلطات المملوكية كذلك على رعاية الشئون الروحية للجاليات الاجنبية فسمح لهذه الجاليات ببناء الكنائس في نطاق الفنادق المشار اليها ، فكان لكل فندق كنيسة ، ولحل جالية قساوستها ، بينما كانت للجاليات الكبرى كنائس كبرى مثل كنيسة القديس نيقولا لاهل بيزا ، وكنيسة القديسة ماريك للجنوبيين ، وكنيسة القديس مشيل للبنادقة (٤٧) • وقد ظل هذا الحال على ما هو عليه في عهد العثمانيين في العصور الحديثة • وكانت سفن البنادقة والجنوبيين تنقل المتاجر من مصر والشام الى أوروبا في العصور الوسطى ، وكانت سفن البنادقة بصفة خاصة تحمل الجزء

(٤٦) ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢ — ١٥١٧ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ •

Heyd, W.: Op. Cit., p. 433.

(٤٧)

الأكبر من تجارة الشرق الى ميناء البندقية^(٤٨) ، حيث تعرض في سوق « رياتو Rialto » هناك ، لتباع في المزاد العلني للتجار الالمان والانجليز وغيرهم . وكان سوق « رياتو » الكبير في البندقية من أشهر الاسواق التجارية في حوض البحر المتوسط ، حيث كانت المتاجر الشرقية توضع في عربات وترحف بها من هذا السوق متجهة الى أنحاء أوربا عن طريق سهل لومبارديا ، وممرات جبال الالب ، وطريق الراين ، لتصل أخيرا الى تجار التجزئة في شتى البلاد الاوربية ليتلقفها المستهلكون هناك^(٤٩) . واستطاعت جمهورية البندقية أن توطد علاقاتها مع سلاطين المماليك — الذين كانوا يحكمون مصر والشام والحجاز — وان تحتكر معظم المتاجر الشرقية الواردة الى مصر عن طريق البحر الاحمر أو الواردة الى موانئ الشام عن طريق الخليج العربي والعراق^(٥٠) .

وقد أنشأت جمهورية البندقية ستة أساطيل بحرية من طراز واحد كانت تمخر عباب البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر ، وعينت لكل منها الموانئ التي يتردد عليها ، واستهدفت من توحيد طراز سفنها أن يكون في استطاعة قناصلها ووكلائها في موانئ البحر المتوسط امداد السفن بما تحتاج اليه من قطع غيار ذات طراز واحد . وجنت البندقية أرباجا خيالية من نقل التجارة الشرقية الى أوربا ومن تصريفها هناك . وأصبح الالتحاق بالبحرية مطمحا ترنو اليه أنظار الشباب من أهل البندقية الذين رأوا في البحرية المجال الطبيعي للمال والشهرة والمجد .

(٤٨) نعيم زكي فهمي (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٤٩) عبد العزيز الشناوي (دكتور) : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ،

ج ١ ، ط ٢ ، ص ١٠٧ .

(٥٠) محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية

ص ٦٠ .

ولقيت البندقية منافسة شديدة من جمهورية جنوة في ميادين التجارة الشرقية ، وتطورت هذه المنافسة التجارية الى صراع سياسى حاد لعب فيه البحر المتوسط دورا حاسما . وتراءت لهاتين الجمهوريتين الضرورة السياسية في اخضاع البحر المتوسط أو على الاقل الجزء الهام منه بالنسبة لنشاطهما — لسيطرة أى منهما . وكانت نتيجة ذلك أن طالبت البندقية بتقرير سيادتها على البحر الادرياتيكي ، كما ادعت جنوة بحق السيادة على بحر ليجوريا . وقد قبلت أوروبا بادعاءات هاتين الجمهوريتين لحاجتها الملحة الى التجارة الشرقية وبخاصة التوابل والعطور والعقاقير ، وبذلك ظهرت في تاريخ العلاقات السياسية الدولية لأول مرة فكرة سيادة الدولة على البحار^(٥١) . ولم يقف التنافس السياسى بين البندقية وجنوة عند هذا الحد ، بل قام بينهما صراع حربي بالغ العنف انتهى بهزيمة أهالى جنوة في معركة « كيوجا Chioggia » وعلى أثرها عقد صلح « تورينو » سنة ١٣٨١م . ولكن جنوة راحت تفكر في وسيلة أخرى لحرمان البندقية من مصادر قوتها وثروتها ، وذلك بايجاد طريق بحرى متصل تأتى منه السلع الشرقية الى أوروبا^(٥٢) . وهذا سيفسر التقارب الذى تم بينهم وبين البرتغاليين في مطلع العصور الحديثة .

وتجدر الاشارة كذلك الى دور فلورنسا في النشاط التجارى مع مصر والشام . خاصة وأن أسرة « ديميدتشى » الحاكمة في فلورنسا في نهاية العصور الوسطى عملت على توثيق صلاتها التجارية مع السلطات

(٥١) حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولى العام في وقت السلم ، ص ٥٦٧ — ٥٦٨ .

(٥٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : اوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ط ٣ ، ص ١٠٩ .

المملوكية^(٥٣) . أما بالنسبة لاهالى فرنسا وأسبانيا فقد كانوا يحصلون على حاجتهم من المتاجر الشرقية من أسواق مصر وشرق البحر المتوسط عن طريق الوسطاء البنادقة والجنوبيين^(٥٤) .

ونظرا لاشتغال البنادقة بالحجم الاكبر من التجارة الشرقية سواء من ناحيتى النقل أو التسويق فقد شكلوا أكبر جالية فى مدينة الاسكندرية فى نهاية العصور الوسطى ، كما كان لهم حى خاص . وكان يشرف على مصالحهم قنصل معين من قبل جمهورية البندقية . وكان حى البنادقة بالاسكندرية يضم فندقين وحماما ومخبزا وكنيسة ، كما كانت حكومة الممالك قد أعفتهم من عدة ضرائب وسمحت لهم بالتجارة فى اللالىء والاحجار الكريمة والفراء . ولهذا لم يتردد البنادقة فى جلب كل ما تحتاج اليه مصر من السلع الخارجية ، حتى الادوات الحربية التى حرمت البابوية التجارية فيها ، كالاسلحة والحديد والاختشاب والرقيق والكبريت والقار وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت ، وذلك رغم تشدد البابوات وتكليفهم فرسان الاسبتارية والداوية بمراقبة البحار ومنع وصول هذه المواد الى المسلمين^(٥٥) . وقد زادت نسبة اهتمام البنادقة بالتجارة الشرقية بعد فتح الاتراك العثمانيين لمدينة القسطنطينية عام ١٤٥٣م . حين أضحت التجارة فى البلقان وموانئ البحر الاسود صعبة ومحفوفة بالمخاطر ، ولذلك وجه البنادقة عنايتهم الى حوض البحر المتوسط الشرقى ، ونشطت

(٥٣) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، اشارة الى الامتيازات التجارية التى منحتها السلطنة المملوكية لطائفة الفرنتيين (اهللى فلورنسا) فى مصر والشام فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، الملحق ١٣ — ٢٥ ، ص ٤٣٩ — ٤٨١ .

(٥٤) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٥٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر الممالكى فى مصر والشام ،

ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

أعمالهم التجارية في موانيه ومدنه كالاسكندرية وببيروت وحلب ودمشق^(٥٦) . وكانت قوافل البندقية التجارية البحرية تصل الى مصر مرتين في كل عام ، في يناير وفي الخريف ، وكانت تتكون القافلة في العادة ما بين ثمان سفن وثلاث عشرة سفينة ، وتقدر حمولتها بمليونى بندقى على أقل تقدير . ولهذا تمتع البنادقة بالمكانة الاولى بين الجاليات في الاوربية في الاسكندرية طوال العصر المملوكى في نهاية العصور الوسطى وأثناء العهد العثمانى في مطلع العصور الحديثة^(٥٧) .

وتجدر الاشارة الى أن العملة الاجنبية كانت متداولة في أسواق مصر في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر . ومن أمثلة هذه العملة عملة البندقية والتي تعرف باسم « دوكات Ducat » نسبة الى دوك — وهو « الدوق Doge » . وكانت العملة الخاصة ببلاد الفرنجة في فرنسا وايطاليا والاراضى المنخفضة المسماة الافرننتية ، جمع أفرننتى ، وهى التى تعرف « بالفولورين Florino » ، وان عرفت العملة الاجنبية بوجه عام باسم « مشخصة » ، وذلك بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهيها^(٥٨) .

وليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية في أيام المماليك في نهاية العصور الوسطى من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك ، مثل : دكاكين وحوانيت ومخازن وقياسر وخانات ووكالات وفنادق ، وهذه الاخيرة كانت

(٥٦) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، وقد أشار الى الاتفاقيات التى عقدها البنادقة مع السلطات المملوكية في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين الملحق ١—١٢ ص ٣٧٣ — ٤٨٠ .

(٥٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارسقراطية ، ص ١٤١ — ١٤٣ .

(٥٨) عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر السيوطى ، ص ٢٧ .

أكثرها تتكون من عدة طوابق ، عبارة عن غرف مختلفة ومخازن ، لها فناء داخلي ، يحتوى على البضائع والدواب ، ويسكنها غالبا التجار الاجانب ، يرأسهم القناصلة — مفردها قنصل — وهم كبار الفرنج ، فكانت الفنادق توجد في كل أنحاء المدن المصرية من الاسكندرية الى أسوان^(٥٩) .

وتجدر الإشارة الى مظهر الثراء في عصر الدولة المملوكية والبذخ الذى عاشته الطبقة المملوكية بالذات ، وعلى رأسها السلطان المملوكى ، حتى أنه من كثرة الاموال كانت له خزانة عرفت « بخزانة الخاص » ، كما أصبحت القلعة — مقر الحكم المملوكى — تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة • ثم هذه المنشآت الضخمة التى تركها معظم السلاطين المماليك ، من جوامع كجامع السلطان حسن وبرقوق والمؤيد — وزوايا ومدارس وسبل وبیمارستانات وحماسات وقلاع — كقلعة قايتباى بالاسكندرية — وتحف مازالت تحتل الصدارة بين آثار مصر الاسلامية ، وأصبحت القاهرة في العصر المملوكى درة في جبين الشرق • كما ظهرت دلائل البذخ في حياة القصور والحفلات^(٦٠) التى طبعت بطابع الاناقة المعبرة عن الانتعاش الاقتصادى الذى ظهر في شكل ثراء وبذخ نادرين ، وحتى في ابداع الصناعة والحرف والفنون وفي ازدهار الحياة الاجتماعية • وكان مصدر هذا الثراء التجارة العالمية العابرة بمصر آنذاك ، وما يفرض عليها من ضرائب متنوعة ، ولهذا سوف تتأثر الحياة الاقتصادية بهذا الثراء العظيم الذى يتمتع به سلاطين المماليك ، فكانت وطأتهم في فرض الضرائب

(٥٩) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، آخر سلاطين المماليك في مصر،

دراسة لاسباب التى أنهت حكم دولة السلاطين المماليك في مصر ، ص ٧٧ .

(٦٠) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٦ .

الداخلية وجمعها في أحيان كثيرة تخف على الزراع والصناع والتجار نوعا ما ، وفي هذا تخفيف كبير عن كاهل الرعايا وعلى الاخص الطبقات الفقيرة وبخاصة الفلاحين ، كما فيه تشجيع للزراعة والصناعة ، وانتشار التجارة (٦١) . غير أن الامر سيتغير عما كان عليه عقب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ وتحويلهم الحجم الاكبر من التجارة العالمية عن مصر والشام والبحر المتوسط الى هذا الطريق الجديد .

وجدير بالذكر أن أسعار السلع الشرقية كانت ترتفع ارتفاعا فاحشا بسبب الضرائب الجمركية الباهظة التي كان يفرضها حكام الدول الشرقية الواقعة على الطريق من أماكن تصديرها الى الشواطئ الاوربية وبخاصة سلاطين المماليك ، فقد كانوا يفرضون رسوما جمركية عند تفريغ البضائع من السفن في السويس ، ورسوما جمركية أخرى عند إعادة شحنها في الاسكندرية . وكانت هذه الرسوم تبلغ سدس قيمة السلع عند مرورها في كل من المدينتين . هذا فضلا عن أجور نقلها وأخطار النقل كأعمال القرصنة والحروب وتنوع وسائل النقل عبر الصحارى والبحار . ومع ذلك فقد كانت متاجر الشرق أوفر انواع التجارة ربحا ، وقد عاش كثير من التجار الاوربيين عيشة الملوك من الارباح الخيالية التي كانت تدرها تلك التجارة (٦٢) . على أن ثمة اجراءات كان لابد من اتخاذها عند استقبال السفن التجارية في الموانئ المملوكية في مصر والشام والمطلة على البحر المتوسط في نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة . ولدينا مثال

(٦١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : معالم التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر ، ص ٥٢ .

(٦٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : اوربا في مطلع العصور الحديثة، ج ١ ، ط ٣ ، ص ١١٠ .

عن الاجراءات التى تتخذ فى احدى هذه الموانى وهو ميناء البرلس •
فالمعروف ان للبرلس مينائين ، أحدهما جديدة ومفتوحة من ناحية الشمال
لاستقبال السفن المسيحية ، والميناء القديمة مفتوحة من جهة الغرب
لاستقبال السفن الاسلامية فقط ، وهذا المدخل الاخير مقفل أمام المسيحيين
حتى ولو كانوا واصلين من جهة البر • وعندما تصل السفينة الى الميناء
ويستقبلها رجال من موظفى الميناء ، يصعدون عليها ، وهؤلاء عادة مندوبين
من قبل نائب الاسكندرية ، وتتخلص مهمتهم فى اثبات جنسيتها عن طريق
القنصل الذى تتبعه أو عن طريق مواطنيهم المقيمين بالثغر ، ومعرفة
عدد ركابها وأسمائهم وأنواع السلع التى معهم ، ثم يرسل هؤلاء الموظفون
هذه البيانات الى نائب ثغر الاسكندرية ، فيبلغها بدوره الى السلطان
بالقاهرة • ويتم تبادل الرسائل بواسطة بريد الحمام الزاجل • فاذا تمت
هذه الاجراءات ، على التجار ان يدفعوا رسما مقررا كضمان ، قدره دوک
واحد (Ducat) زاد بعد ذلك الى اثنين عن كل رأس منهم ، ويدفع كل منهم
رسما اخر قدره ٢٪ بالنسبة لما معهم من النقود ، ثم يسمح لهم بعد ذلك
بالنزول الى الميناء ، حيث يجدون المأوى للاقامة ، والمخزن لبضائعهم ، فى
الفندق الخاص لمواطنيهم من بنى جنسهم •

وكان هؤلاء التجار — فى العادة — يعملون فى تسويق منتجات بلادهم
كما يشترون ما يلزمهم من المتاجر الموجودة فى مصر والسلع المنتجة فيها ،
وتلك التى ترد اليها من الشرق ، وكانت الاخيرة تدر عليهم أرباحا طائلة ،
كما كانت تدر أرباحا طائلة أيضا على السلطات المملوكية • اذ فرضت حكومة
المماليك الرسوم المقررة على التجارة المارة ببلادها ، وذلك بجانب رواج
التجارة الداخلية فى هذه السلع وما يترتب على ذلك من فوائد للحكومة
المملوكية • ولكى تحصل مصر على مزيد من الربح من التجار الشرقية ،

اتبع السلاطين المماليك سياسة الاحتكار وزادوا في رسوم المرور • اذ بدأ السلطان برسباي احتكار تجارة التوابل ، وأصدر لهذا الغرض مرسوما في عام ١٤٢٨ يحرم به شراء التوابل من غير مخازن السلطان • وفي نفس الوقت أجبر تجار الشرق على شراء البضائع التي تبيعها مصر بسعر مرتفع مثل العقيق والنحاس وغيرهما من السلع الرائجة • وساعد على تنفيذ سياسة الاحتكار أن الحكومة المملوكية كانت تجبى رسومها عينا ، وقد ترتب على ذلك ارتفاع أسعار السلع الشرقية ارتفاعا باهظا مثل التوابل والحرير على وجه الخصوص • فمثلا صار التجار الاوربيون يشترون قنطار الفلفل الاسود بسعر يتراوح بين ١٢٠ — ١٣٠ دينارا ، بعد أن كانوا يشترونه من قبل بسعر ٥٠ دينارا في القاهرة و٨٠ دينارا في الاسكندرية (٦٣) •

وقد ضج التجار الاوربيون من مغالة المماليك في احتكارهم للتجارة الشرقية وفرضهم المكوس الباهظة عليها • وجاء أول احتجاج من جانب القطلانيين عام ١٤٣٢ حين أبلغ ممثلوهم السلطان برسباي أنهم رفضوا شراء البضائع من مخازن السلطان ، غير أنهم لم يظفروا باجابة طيبة مرضية ، لان برسباي لم يغفر لهم ما فعله قراصنتهم • كذلك احتجت مملكتا فشتاله وأرغونة ، وقابلتا هذا الاجراء بمثله ، وذلك برفع أثمان السلع الاوربية التي ترد الى مصر • بل أن البنادقة أخذوا يفكرون في قطع علاقاتهم التجارية مع مصر فأرضاهم السلطان وأن لم ينزل عن احتكاراته • وحدث أن هاجمت أرغونة وقشتاله السفن المملوكية على سواحل سوريا فأجاب

Wiet, G.: L Egypte Arabe, Histoire de La Nation Egyptienne, (٦٣)
TV., pp 574, 576.

السلطان بالقبض على التجار البنادقة في الاسكندرية وصادر متاجرهم (٦٤) ورغم أن حدة الاحتكار الحكومية قد خفت في عهد السلطان جقمق ، الا أن معاملة التجار الاجانب لم تستمر على حال واحد طوال عهود السلاطين بعد جقمق ، حتى ضاق التجار ذرعا بهذه المعاملة • وهذا مما حملهم على الانتقام في عام ١٤٧٥ م ، اذ احتالوا على بعض تجار الاسكندرية من الوطنيين وأسروهم وخرجوا بهم الى بلادهم • وكان من بين هؤلاء التجار الاسرى بعض تجار السلطان قايتباي ولذلك أمر قايتباي نائبه في الثغر بالقبض على جميع التجار الاجانب فيه وأمرهم بمكاتبة ملوكهم ، ثم استطاع التجار المصريون أن يفدوا أنفسهم بالمال (٦٥) •

على أن الحكومة المملوكية ظلت تجبى مكوسا على التجارة الشرقية وصلت نسبتها الى العشر ، غير أن هذه النسبة زيدت تدريجيا ، حتى جبي الامير حسين الكردي نائب السلطان قونصوه الغورى في جده عشرة أمثال العشر ، أى مثل قيمة البضائع تماما • ومن المرجح أن هذه الزيادة في أعقاب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ مما أضعف من حجم التجارة الشرقية المارة بطريق البحر الاحمر وأدى بالتالى الى مغالة السلطات المملوكية في جدة في رفع نسبة المكوس لتحصل على اكبر عائد يغطى احتياجاتها مع قلة حجم التجارة الواردة •

ولم تكن المعاملة في الموانى المملوكية الاخرى خيرا منها في جدة ، فازدادت الرسوم الجمركية على التجارة الواردة الى الاسكندرية ودمياط

(٦٤) Lane - Poole, S. : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 340.

(٦٥) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٢ •

من السلع الأوروبية مما جعل الأوروبيين يمتنعون بدورهم عن التصدير الى الموانئ المملوكية في مصر والشام وآنذاك (٦٦) .

ومن القيود التي فرضها كذلك الحكام المماليك على التجار الاجانب منعهم من مغادرة فنادقهم لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات خلال صلاة الجمعة . ويرجع أساس هذا الاجراء الى ماحدث سنة ١٣٦٥ م عندما هاجم بطرس الاول لوزنيان ملك قبرص الاسكندرية في يوم جمعة وأحتل المدينة ونهبها . ومن القيود كذلك أغلاق الفنادق في المساء على من فيها ، وكان يتولى حراستها حراس من قبل السلطات المملوكية (٦٧) . وقد كان لهذه القيود في مجموعها أثرا سيئا على الاجانب الاوروبيين بوجه عام ، مما سيثبثهم الى جانب اعتبارات عديدة أخرى سنشير اليها فيما بعد . على التوجه الى كشف الطريق البحري المباشر بين أوروبا والهند في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ويتمكنون من الوصول الى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ .

(٦٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٦٠ .

(٦٧) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

الفصل الثانى

دور البرتغاليين فى تحويل التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى

اتجه البرتغاليون منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادى نحو عمليات
الكشف الجغرافية فيما وراء البحار نتيجة للنمو المتصاعد للشعب البرتغالى
ذاته ، وظهور تطلعاته القومية ، ورغبته فى السيطرة والثراء • كما أدى
احتدام الصراع الدينى بين المسيحيين الكاثوليك والمسلمين فى شبه جزيرة
أيبيريا فى نهاية العصور الوسطى الى اتجاه البرتغاليين الى مطاردة
المسلمين على ساحل افريقيا الغربى ، والى اصرارهم على انتزاع التجارة
الشرقية من أيديهم عن طريق كشف طريق بحرى مباشر الى البحار
الشرقية • وكان البرتغاليون قد تأثروا بتحريض أهالى جنوه الذين سعوا
الى القضاء على ثروة أعدائهم ومنافسيهم البنادقة بعد أن جنوا أرباحا
طائلة من التجارة الشرقية (١) • وكان الحجم الاكبر من هذه التجارة يمر
بمصر وينقل منها الى عالم البحر المتوسط طوال العصور القديمة والوسطى،
وكانت البندقية بصفة خاصة — كما سبق أن أشرنا — تقوم بدور الوسيط
بين موانئ البحر المتوسط الاسلامية والعالم الاوربى آنذاك •

واستطاع البرتغاليون أن يحققوا غايتهم مستندين الى قوتهم
وجهودهم البحرية من جهة ، والى جهود استطلاعية أخرى اتسمت بالسرية

(١) Serjeant, R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, p. 2.

وتركزت حول جمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق ، وطرق هذه التجارة ،
وانواع البضائع الشرقية ، وامكانات القوى التي سيحاربونها من جهة
أخرى (٢) .

وقد استولى الملك البرتغالي « يوحنا الاول Jean I » على سبته (٣)
في سنة ١٤١٥ (٤) وأقطعها لولده الامير هنري الشهير بالملاح والمعروف
بحقده وكرهيته المتناهية للإسلام والمسلمين ، والذي سيكرس حياته
وبيذل جهوده لاكتشاف طريق بحري جديد يدور حول إفريقيا للوصول
الى الهند للسيطرة على تجارة المسلمين (٥) . وبدأت أولى حملات الكشف
البحرية البرتغالية لسواحل غرب إفريقيا في سنة ١٤١٨ م . وقد لجأت
البرتغال الى اضعاف الشرعية الكنسية على التوسعات البرتغالية في أعقاب
فتح العثمانيين للقسطنطينية في سنة ١٤٥٣ عندما حصلت على براءة البابا
نيقولا الخامس في اليوم الثامن من يناير سنة ١٤٥٤ بأحقية التاج البرتغالي
في امتلاك سبته وغيرها مما يؤكد توفر الروح الصليبية في توسع البرتغال
فضلا عن الدوافع السياسية والاقتصادية الغالبة (٦) . وقد استمرت
الحملات البحرية البرتغالية تكتشف الساحل الغربي لإفريقيا حتى تمكن

Alvarez, F.: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the
Years 1520 à 1527, pp. 265 à 270. (٢)

(٣) مدينة سبته هي مدينة مغربية تطل على ساحل البحر المتوسط وقسم
احتلها لبرتغاليون عام ١٤١٥ ، الا أن هذا الاحتلال لم يدم طويلا وذلك بسبب
احتلال الاسبان لها بعد ذلك والذي لا يزال حتى الان ، وقد شمل هذا الاحتلال
في نفس الوقت مدينة مليلة القريبة منها .

Atkinson, W. C. :A History of Spain and Portugal, p. 99. (٤)

(٥) احمد مختار العبادي (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس
ص ٤٥٥ .

(٦) براهيم شحاته حسن (دكتور) : وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب
(٩٨٦هـ / ١٥٧٨م) ، ص ٢٩ .

« بارتلميو دياز Bartholomew Diaz » من الوصول الى أقصى نقطة في هذا الساحل واكتشاف الطرف الجنوبي لافريقيا الذي عرفه « برأس العواصف » والذي أطلق عليه ملك البرتغال « يوحنا الثاني Jean II » (١٤٨١ — ١٤٩٥) « رأس الرجاء الصالح » تيمنا بالكشف الجديد وذلك في عام ١٤٨٧م^(٧) .

وقد تمكن الرحالة البرتغالي « بيرودي كوفلهام Pero de Koviham » في منتصف سنة ١٤٨٧ من الوصول الى مصر عبر البحر المتوسط ، وأبحر منها الى ميناء سواكن عبر البحر الاحمر ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل الى عدن ، ووصفها بأنها كانت آنذاك مدينة عظيمة وأن بها تجارا من جميع الاجناس ، وبعد ذلك واصل رحلته الى الهند^(٨) . وعند عودته قام بزيارة معظم المناطق الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لافريقيا ، كما مر بمدينة زيلع ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل الى «سوفالا»^(٩) . وقد عاد هذا الرحالة الى مصر حيث تمكن من جمع معلومات عن الحبشة دفعته للتوجه اليها . وكانت رحلته الى الحبشة — التي كانت تتبع من الناحية العقائدية الكنيسة الارثوذكسية اليغوبية في مصر — بداية لسلسلة من رحلات المستكشفين والبعثات الاوربية الكاثوليكية التي وفدت اليها أثناء القرن السادس عشر ، والتي كانت تهدف الى استقطابها للكاثوليكية^(١٠) .

Kammerer, A.: La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie depuis L'Antiquite, T. II p. 75.

(٧)

Playfair, R. L.: A History of Arabia Felix or yemen, Selections from the Records of the Bombay Government, New Series, XLIX, p. 96.

(٨)

Coupland, R.: East Africa and Its Invaders, p. 42.

(٩)

Johnston, H.: History of the Colonization of Africa by alien races p. 32.

(١٠)

لتطويق العالم الاسلامي وانتزاع التجارة الشرقية التي تشكل مصدر قوته آنذاك^(١١) . وقد أصبح « بيرودى كوفلهام » مستشارا لملك الحبشة (قسطنطين الثانى) ثم رسوله الى ملك البرتغال « يوحنا الثانى » للاتفاق على حملة مشتركة لتحرير القدس ، ولكن البعثة لم تبتعد كثيرا بسبب نزاع نشب بين حراس البعثة ، وبعض الاهالى ، وهكذا فشل هذا المشروع^(١٢) . وعلى أية حال فقد مهدت جهود الرحالة « بيرودى كوفلهام » السبيل أمام الرحالة « فاسكودا جاما Vasco da Gama » عندما قام برحلته حول رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٧ وممر بالساحل الشرقى لافريقيا حتى وصل الى موزمبيق حيث وجد قاربا على متنه بعض الزنوج وأحد البحارة ، ظنه البرتغاليون فى بداية الامر من المغاربة . وعندما ما اقتربت السفن البرتغالية من القارب ، هرع الزنوج والقوا بأنفسهم فى البحر وفروا الى الساحل بينما نقل البحار الى سفينة القيادة البرتغالية حيث أحسن « داجاما » استقباله ، واكتشف أن الرجل هندي ، وليس عربيا مغربيا وأنه من أهل « كمباى Cambay » بالهند ويدعى « دافان » ، وقد اتخذ داجاما مستشارا له لانه كان خبيرا بالتوابل ومن سماسرتها . وقد وافق هذا الملاح على مرافقة البرتغاليين الى الهند ، وتعهد بتزويدهم بحمولة من التوابل نظير توصيله الى بلاده^(١٣) . كما استجاب شيخ موزمبيق لطلب « داجاما » وزوده بأثنين من المرشدين ، الا أنهما تمكنا

(١١) بانيكار ، ك. م. : آسيا والسيطرة الغربية ، تعريب عبد العزيز

توفيق جاويد ، ص ٢٩ .

Ziade, M. : Foreign Relations of Egypt in the Fifteenth Century, Vol. 1., pp. 287, 288. (١٢)

Howe, Sonia: Op. Cit., pp. 193 & 195. (١٣)

من الفرار عندما تأكدا أن البرتغاليين من المسيحيين مما أدى الى استخدام البرتغاليين العنف مع الاهالى (١٤) . ولهذا لم يغامر «داجاما» بالرسو بأسطوله في منبسة ، عندما شك في احتمال قيام ملكها بتدمير سفنه واغراقها انتقاما لما فعله ضد أهالى موزمبيق . وعندما وصل البرتغاليون بعد ذلك الى ميناء ماندى — الواقعة حاليا في كينيا — لقي داجاما فيها ترحيبا من ملكها، خوفها أو ضعفا (١٥) . فلما عزم على مغادرتها بعد عدة أسابيع ، طلب من صاحبها امداده بملاح يرشده الى الهند ، فاستجاب له الملك وأمدّه بملاح ماهر قاد أسطوله الى قاليقوت ، فوصلها في مايو سنة ١٤٩٨ (١٦) . واذا كان ذلك ما أوردته الكتابات البرتغالية حول هذا الموضوع فإن أول من أشار اليه من المؤرخين العرب قطب الدين النهروالى الذى أشار الى أن البرتغاليين « دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الامواج . فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم . فكثروا في بحر الهند . . . وصارت الامداد تترادف عليهم من البرتغال . وصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصبا ، الى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين » (١٧) . وعلى هذا النص اعتمد المستشرق الفرنسى

Strandes, J. : The Portuguese period in East Africa, pp. 20 - 24. (١٤)

Strong, A. : The History of Kilwa, (J. R. A. S.) London, 1895, (١٥)
pp. 397, 428

(١٦) جيان * وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقية الشرقية ، ص ٢٠٩ .

(١٧) قطب الدين النهروالى ، محمد بن أحمد الحنفى المكي : « البرق اليماني في الفتح العثماني » مخطوطة نشرها حمد الجاسر عام ١٩٦٧ ، ص ١٨ — ١٩ .

« جبرييل فران G. Ferrand » • فيما ذهب اليه من أن أحمد بن ماجد العربي المسلم هو الملاح الذي قاد أسطول « فاسكوداجاما » من مالندى الى موطن التوابل في قاليقوط (١٨) • ومن المرجح أن دور ابن ماجد انحصر في اسداء النصيح وتقديم المشورة للقائد البرتغالى «فاسكوداجاما» وامداده بالمعلومات التى ساعدت على سلامة سفنه ، وتعليمه الطريق قولاً ووصفاً ، وليس عملاً وقيادة • أما الملاح الذى قام بمهمة ارشاد الاسطول البرتغالى الى الهند ، فهو ذلك الملاح الهندى الذى أشارت اليه المصادر البرتغالية • وبذلك « لا تلقى المسئولية كاملة على ابن ماجد فى وصول البرتغاليين الى الهند • خاصة وأن البرتغاليين آنذاك لم يكشفوا عن أهدافهم الحقيقية ، ولهذا كان من السهل عليهم العثور على من يتعاون معهم ، طالما كانت معاملتهم حسنة ، وتكفلوا باعطاء الاجر المناسب » (١٩) •

وعلى أية حال ، فقد استغرقت رحلة « فاسكوداجاما » ثلاث سنوات (١٤٩٧ — ١٤٩٩) عاد بعدها من الهند الى لشبونه فى شهر سبتمبر سنة ١٤٩٩ • وقام « فاسكوداجاما » أثناء رحلته بمهاجمة احدى السفن التجارىء العربية واستولى على ما بها من بضائع ، ثم أمر باغراقها بمن تحملهم من الركاب • كما قام أثناء رحلته الثانية الى الهند فى سنة ١٥٠٢ بتكليف أحد قادته بالاقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الاحمر لمهاجمة السفن الاسلامية ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة أثناء ابحارها

Ferrand, G. : Le pilote Arabe de vasco de Gama, pp. 290 - 307, Art Shihab Al d Din, in ENC. of Islam, Vol. Iv, p. 368. (١٨)

(١٩) محمد عبد العال أحمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملاح فاسكودى جاما ، مجلة معهد الدراسات والبحوث الافريقية بجامعة القاهرة ، العدد الخامس ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ — ١٦٧ ، ١٧٨ •

في مياه المحيط الهندي الا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين (٢٠) .
وقد اشقط « فاسكوداجاما » في مهمته عندما قام في شهر يناير سنة ١٥٠٣
بمهاجمة سبع سفن اسلامية واستولى عليها ، بل أنه قام بقتل بعض ركبها
وأسر البعض الآخر وفي ذلك يورد المؤرخ « بامخرمة » في حوليائه (عن
سنة ٨٠٨ هـ التي يوافق مطلعها اليوم السابع من يوليو سنة ١٥٠٢ م) .
أن : « في هذه السنة ظهرت مراكب الفرنج في البحر بطريق الهند وهرموز
وتلك النواحي ، وأخذوا نحو سبعة مراكب وقتلوا أهلها وأسروا
بعضهم » (٢١) . « ثم يشير ابن إياس » في حوليائه عن سنة (٩١٢ هـ التي
يوافق مطلعها ٢٤ مايو ١٥٠٦ م) . « وفي هذه السنة قويت شوكة الفرنج ،
وحصل على المسلمين منهم ضرر عظيم في ناحية الهند وهرموز ، أهلكهم
الله » (٢٢) . ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل أنهم هددوا جده في سنة
١٥٠٥ (٢٣) ، وتمكن بعض جواسيسهم من التسلل الى مكة نفسها (٢٤) .
على هيئة حجاج في زى عربى وكشف أمرهم ، وكان ملكهم قد أقسم أن
يستولى على مكة وأن يقوم بنش قبر الرسول — ﷺ — في المدينة
المنورة (٢٥) . وتعتبر الرحلة التي قام بها « فاسكوداجاما » الى الهند
بداية للمرحلة الاولى في تاريخ البرتغاليين (بلاد الشرق ، اذ تطورت

(٢٠) Hunter, F. M. An account of the British settlement at Aden, p. 162.

(٢١) بامخرمة ، أبو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ —
١٥٤٠) : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، مخطوطة السنة الثامنة بعد
التسعمائة ، لوحة ١١٩ .

(٢٢) بامخرمة : نفس المصدر ، لوحة ١١٩٢ .

(٢٣) Stripling, G. W. F. : The Ottoman Turks and the Arabs, p. 28.

(٢٤) ابن إياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

(٢٥) Kammerer, A. : Op. Cit., Tome 2., p. 144.

أغراضهم في خلال فترة لا تتجاوز عشر سنوات تمتد بين عامي ١٤٩٩ و ١٥٠٩ من مجرد الرغبة في كشف الطريق البحري الى الهند لتحقيق بعض المكاسب الاقتصادية (٢٦) ، الى الرغبة في احتكار التجارة الشرقية والسيطرة عليها وعلى مصادرها الاصلية ، بل والى اقامة أول حكومة استعمارية أوربية في بلاد الشرق • ولاشك أن تفوق البرتغاليين الحربى كان عاملا أساسيا في تطور موقفهم السريع أثناء تلك الفترة بحيث كانوا يمتلكون سفنا حربية مزودة بالمدافع ، وهى أسلحة لم تكن معروفة في الهند في ذلك الحين (٢٧) . وقد تركز نشاط البرتغاليين في تلك الفترة في تثبيت اقدامهم على سواحل المحيط الهندى ، وفي مهاجمة السفن والمراكز التجارية العربية والاسلامية في مياه الخليج العربى والبحر الاحمر وبحر العرب والمحيط الهندى بوجه عام (٢٨) وكان استيلاء البرتغاليين على جزيرة سقطرى في سنة ١٥٠٦م، الواقعة في مواجهة القرن الافريقى وتشرف على مدخل خليج عدن المؤدى الى البحر الاحمر ، عاملا حاسما في تحكم البرتغاليين في الطريق البحرى المباشر بين مصر والهند • وقد أعقب ذلك استيلاء البرتغاليين على ملقا في سنة ١٥١١ في أقصى شبه جزيرة الملايو في الطرف الجنوبى الشرقى

(٢٦) عيسى بن لطف الله : « روح الروح فيما حدث في المائة التاسعة من الفتن والفتوح » ، مخطوطة ص ٩ .

(٢٧) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨ — ١٦٣٥ ، ص ٥٠ — ٥١ .

(٢٨) محمد عبد العال احمد (دكتور) : البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمنى «بامخرمة» كما سجلها في مخطوط (قلادة النحر) دراسة وتحقيق ، ص ١٠٠ .

من آسيا ، والتي كانت تعد من أعظم قواعد التجارة العالمية ، حيث تتجمع منتجات منطقة الشرق الاقصى والهند الصينية بصفة خاصة . كذلك أدى استيلاء البرتغاليين على هرمز الى اغلاق الخليج العربى (٢٩) والى سيطرتهم على مصايد اللؤلؤ في الخليج ، وعلى تجارة الخبول الفارسية والعربية التي كانت ترسل من هرمز الى بلاد الهند .

وبعد أن تمكن البرتغاليين من الوصول الى قاليقوط في سنة ١٤٩٨م، أخذت التجارة الشرقية التي كانت تصل من المحيط الهندي — الذي كان أشبه بوعاء العسل بما فيه من خيرات — تتحول الى طريق رأس الرجاء الصالح ، بحيث لم تعد مصر المركز الرئيسى الذى تتجمع فيه السلع الشرقية ، فيشتريها البنادقة وغيرهم . ولما أصبح البرتغاليون يتحكمون فى منابع هذه السلع من أرجاء المحيط الهندي بعد حركة الكشف فلم تعد هناك حاجة الى وساطة مصر أو البندقية ، تلك الوساطة التى أدت الى ارتفاع أثمانها فى الاسواق الاوربية . اذ كان ثمن قنطار الفلفل على سبيل المثال يتراوح بين ٢١ و ٣ بندقيا فى قاليقوط ، ويصبح ثمنه بعد وصوله الى الاسكندرية ٨٠ بندقيا ، على حين صار يباع فى لشبونة البرتغالية بعد الكشف الجغرافى بسعر يتراوح بين ٢٠ و ٤٠ بندقيا ، أى أن أسعار السلع انخفضت بواقع نصف قيمتها على أكثر تقدير . كما أن السفن البرتغالية وفرت على المستهلك الاوربى مشقة الحصول على السلع الشرقية حتى من لشبونة التى أصبحت مركزا لتجميع هذه السلع وتسويقها ، اذ صارت السفن البرتغالية تنقل السلع الشرقية مباشرة الى مناطق الاستهلاك مثل انجلترا

(٢٩) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية

مفتى عليها ج ١ ، ص ٦٩٨ — ٦٩٩ .

والأراضي المنخفضة وغيرها من الدول الأوروبية (٣٠) .

وهكذا تمكن البرتغاليون من تحويل التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عقب وصولهم الى الهند في سنة ١٤٩٨ ، وبذلك حرمت مصر وعالم البحر المتوسط من تيارها المتدفق في مطلع القرن السادس عشر الميلادي .

(٣٠) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

الفصل الثالث

أثر تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء

الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط

أثناء القرن السادس عشر

أدى تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر . ميلاديين الى احداث تغير واضح المعالم في الواقع الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي الذي عاشته مصر وعالم البحر المتوسط في مطلع العصور الحديثة ، وخاصة أثناء القرن السادس عشر أو بالأحرى حتى نهاية الفترة التي ظهرت فيها انعكاسات هذا الحدث التاريخي الهام وردود الفعل المختلفة ازاءه ، والنتائج التي ترتبت عليه ، واستمرت مع تغير تدريجي ، وتطور بطيء حتى عودة التجارة العالمية الى هذا الطريق التقليدي القديم عبر مصر وعالم البحر المتوسط بشكل واضح في نهاية القرن الثامن عشر .

وسوف نعالج فيما يلي الاثر الذي أحدثه هذا التحول للتجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط في المجالات الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية حتى يمكننا التعرف على حقيقة أبعاده ، أثناء القرن السادس عشر .

(أولا) الاثر الاقتصادي لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء

الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :

مما لا شك فيه أن العامل الاقتصادي يشكل احدى الدعامات الكبرى التي تستند اليها أي دولة في قيامها وبقائها ، وأنه اذا تطرق الضعف الى هذه الدعامة فان ذلك يعد نذيرا بتداعي الدولة وانهيارها . ودولة سلاطين

الممالك في مصر والشام والحجاز كانت تتمتع أيام عنفوانها وقوتها باقتصاد متين ، استند الى هذا الحجم الهائل من التجارة العالمية النشطة التي كانت تمر عبر بلادها من جهة ، والى تمتعها بحالة من الامن والاستقرار النسبي من جهة أخرى ، هذا فضلا عن امتلاكها لقوة ضاربة يحترمها الاصدقاء ويخافها الاعداء ، ونظام ممالكها كان في عهد قوته يعترف فيه المملوك بفضل أستاذه ، ويحترم فيه الصغير من هو أكبر منه سنا ودرجة . وهكذا حققت دولة سلاطين الممالك توازنا يدعو الى الاعجاب في سياستها الداخلية والخارجية جعلتها موضع احترام سكانها في الداخل وجيرانها في الخارج وذلك خلال القرنين الاوليين من بداية عهدها وقبل نصف قرن من انهيارها عام ١٥١٧ .

غير أن السلطنة المملوكية تعرضت في نصف القرن الاخير من حياتها منذ عهد السلطان قايتباي في سنة (٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) لكثير من مظاهر التدهور الاقتصادي نتيجة لعوامل متعددة ، وكان تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح بعد وصول البرتغاليين الى الهند في سنة ١٤٩٨ ، وما ترتب عليه من اضعاف للنشاط التجاري وللعوائد المالية للممالك من جهة ، وما صاحب ذلك من مجهود حربي لمواجهة الخطر البرتغالي في وقت انهار فيه نظام الاقطاع الحربي الذي استند اليه كيان الدولة منذ بداية عهدها من جهة أخرى ، وجاء ذلك من ناحية الترتيب الزمني في نهاية تلك العوامل ، فقد كان هذا العامل الاخير أشبه بالقشة التي قصمت ظهر البعير . ولكي نتعرف على الابعاد الحقيقية لهذا الحدث التاريخي المتمثل في أثر تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، فإنه ينبغي علينا أن نتعرف على عوامل التدهور التي ظهرت في كيان الدولة المملوكية في نصف القرن

الآخير من حيلتها لما لها من أثر كبير على اعطاء هذا الحدث التاريخى حجمه الحقيقى وبعده التأثيرى ، وخاصة بعد أن ارتكز اليه منفردا الكثيرون من الباحثين متأثرين بأنه كان آخر الاحداث البارزة التى كان لها تأثيرا سلبيا فى حياة الدولة المملوكية فى نهاية عهدها .

ومن العوامل التى اشتركت مع هذا العامل الآخير فى احداث التدهور الاقتصادى للدولة المملوكية فى نهاية عهدها وخاصة منذ عهد السلطان قايتباى الذى بدأ عام (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) ظهور عبث المماليك الجلبان (١) مع أهالى البلاد الامنين بشكل ملحوظ ، ونهب أموالهم وممتلكاتهم ، والتمرد بين حين وآخر على السلطان بدعوى عدم الرضا عما يخصصه لهم من نفقة وأموال ومطالبتهم بالمزيد . ولم تسلم فئة من فئات المجتمع من أذى المماليك وفسادهم حتى « أنهم رجموا الامراء من الطباق بالحجارة وكبوا عليهم الماء المنتجس بالاقذار وخطفوا عمائم الفقهاء » ، كما يروى ابن اياس فى حوادث عام (٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) (٢) . بل أن المماليك الجلبان لم يستطيعوا أن يكفوا أيديهم عن أذى الناس حتى فى أوقات الخطر والشدة . وقد روى ابن اياس فى حوادث عام (٩٢١ هـ / ١٥١٥ م) أنه عندما نودى فى العسكر للتجريدة والمخرج لمواجهة العثمانيين أن المماليك الجلبان « نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار ، وهجموا عليهم الحارات والبيوت ، ونزلوا الفقهاء من على بغالهم فى وسط الاسواق ، وأخذوهم من تحتهم » (٣) . وكان من الطبيعى أن يترك

(١) المماليك الجلبان هم المماليك الذين جلبهم السلطان لنفسه عن طريق الشراء من خارج مصر ، وكان السلاطين يقربوهم اليهم على حساب المماليك الآخرين مما سبب الغيرة بينهم وبين غيرهم من المماليك .

(٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٠٠ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٧٤ .

ذلك أثره في الحالة الاقتصادية إذ لم تلبث أن أغلقت الطواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ، ووقع القحط بين الناس ، وضج العوام ، وكثر الدعاء على السلطان ، وعلقت أسواق القماش من الممالك ، واختفى الصناعات والخياطون ، واضطربت أحوال القاهرة ، واختفى جماعة من التجار خوفا من الممالك » (٤) . وتجدر الإشارة الى أن عبث الممالك كان معظمه من الممالك الجلبان ، الذين دأب سلاطين الممالك مع افتقار دولتهم على شرائهم كبارا وقد تجاوزوا سن البلوغ لانهم في هذه الحالة كانوا أرخص ثمنا من الممالك الصغار الذين ينشأون في قصورهم وهؤلاء الممالك الكبار كان يصعب تعليمهم آداب السلوك وتغيير أسلوبهم الذي اعتادوه في صغرهم مما جعلهم أداة هدم ومحول تخريب في الدولة . وتكاد لا تمر سنة واحدة من الخمسين سنة الأخيرة من عمر دولة سلاطين الممالك دون أن يشير ابن اياس الى فتنة أو ثورة أو اضطراب أحدثه الممالك الجلبان في الدولة وترتب عليه انهيارا في اقتصادياتها من جهة أو أخرى (٥) .

كذلك لم يلتزم سلاطين الممالك نوعا من الاقتصاد في نفقاتهم الخاصة ليخففوا على رعاياهم الأعباء الثقال الملقاه على عواتقهم ، وانما استمر الممالك — سلطانا وأمرأ وجندا — يعيشون عيشة البذخ والاسراف في الوقت الذي يئن الناس من كثرة الالتزامات المفروضة عليهم . فالسلطان قايتباي الذي أعلن سنة (٨٩٤هـ / ١٤٨٨م) أمام القضاة والأمرأ أن جميع ما في خزائن الدولة من أموال قد نفذ ، إذ به في العام التالي

(٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٧٤ — ٤٧٥ .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين الممالك (٨٧٢ — ٩٢٣هـ / ١٤٦٨ — ١٥١٧م) في ضوء كتابات ابن اياس ص ٧٠ .

(٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م) يقيم حفلا لمناسبة ختان ابنه محمد الذي تسلطن بعده وكان في السابعة من عمره . ويتكلم ابن اياس عن هذا الحفل فيقول مانصه . « وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من نوادر المهمات ، فاجتمع سائر مغاني البلد ، ورسم السلطان بأن تزين القاهرة ، فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الاسواق . . . فكانت تلك الايام مشهودة لم يسمع بمثلها ، ودخل على السلطان من التقادم مالا ينحصر من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك ، مما يزيد عن خمسين ألف دينار . فكان من جملة ماأهداه المقر الشهابي أحمد بن العيني طست وأبريق ذهب زنته نحو ستمائة مثقال برسم الختان . . . » (٦) . واستمرت مظاهر الاسراف والتبذير حتى عهد السلطان الغورى الذى يقول عنه ابن اياس فى حوادث سنة (٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م) أن خاصكيتة تكاملت فى تلك السنة « نحو ألف ومائتى خاصكى من مشروعاته » . (٧) هذا كله فضلا عن المنشآت الضخمة التى ظل السلاطين يقيمونها حتى أواخر عهد دولتهم . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما عدده ابن اياس فى حوادث سنة (٩٠١ هـ — ١٤٩٥ م) من منشآت اقامها الاشرف قايتباى أيام دولته : فأقام خلال حكمه من المباني الفاخرة أربع منشآت فى الحجاز ، ومدرستين بالشام ، ومدرسة بالاسكندرية ، والقلعة التى أنشأها مكان المنار القديم بالاسكندرية ، ومدرسة بغزة ، وجوامع بمصر والقاهرة ، فضلا عن المدارس والسبيل والمكاتب والزوايا والاسبلة والقناطر والربوع ، كما أنشأ وجدد بالقلعة عدة منشآت (٨) .

(٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧١ .

(٧) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٦ .

(٨) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

ومن العوامل التي زادت من سوء الأحوال الاقتصادية في نهاية عهد السلطنة المملوكية أمور طبيعية لم ترحم البلاد • اذ يروى ابن اياس كيف انتشر وباء الطاعون في مصر عدة مرات في السنوات التالية (٨٧٣هـ — ١٤٦٨م) — (٨٨٨هـ — ١٤٨٣م) — (٨٩٧هـ — ١٤٩١م) — (٩٠٣هـ — ١٤٩٧م) — (٩٠٩هـ — ١٥٠٣م) — (٩١٢هـ — ١٥٠٦م) — (٩١٩هـ — ١٥١٣م) • ومن هذا يبدو أن الناس ماكدوا يفيثون من موجة من موجات الطاعون حتى يتعرضون لموجة كاسحة جديدة • (٩) • ويذكر ابن اياس عن الطاعون الذي انتشر سنة (٨٩٧هـ — ١٤٩١م) بأنه كان الطاعون الثالث الذي وقع في دولة الاشرف قايتباي ، وأنه « فتك في الناس فتكا ذريعا » حتى بلغ عدد من مات به وأبلغ اسمه فعلا لديوان المواريث نحو من مائتي الف انسان • ويعلل ابن اياس في حوادث هذا العام ، هذه الطواعين بالفساد الذي عم البلاد ، وأنها جاءت نقمة من الله بعد أن « كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور الممالك في حق الناس » (١٠) •

ومن العوامل الطبيعية التي أثرت في الأوضاع الاقتصادية في نهاية عهد السلطنة المملوكية ظاهرة انخفاض النيل (١١) وتعرض الحاصلات لبعض الاوقات مما كان يعود على الحياة الاقتصادية بأفدح العواقب • وقد أوضح ابن اياس في حوادث سنة (٨٩١هـ — ١٤٨٦م) أن فيها « تنالهي سعر البرسيم كل فدان مخضر باثنى عشر دينارا ، وأبيع الدريس كل مائة قطة بأربعمائة درهم ••• وسبب ذلك أن حب البرسيم كان غاليا في تلك

(٩) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طوما باي ، ص ٨٩—٩٠ •

(١٠) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ •

(١١) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باي ، ص ٨٨—٨٩ •

السنة ، وكان النيل خسيسا • والذي طلع من البرسيم أكلت غالبية الدودة • وكان سعر الغلال جميعه مرتفعا في هذه السنة ، حتى غلا سعر الرواية الماء من عدم العلف لجمال السقاين « (١٢) •

وفي الوقت الذي تعرض فيه الفلاح في مصر لهذه الازمات الاقتصادية التي جاءت لفعل الطبيعة ، ما بين وباء ونقص في ماء النيل ، وآفات تلتهم المحاصيل •• اذ به لا يسلم من خطر العربان الذين دأبوا على افساد البلاد والاعتداء على الفلاحين ونهب مواشيهم ومحاصيلهم مما جعل الريف يتعرض لازمات تخريبية زادت الاحوال الاقتصادية في البلاد سواء على سوء • وقد أغاض ابن اياس في وصف عبث العربان بأرجاء مصر وتعديهم على العباد وذلك في ذكره لاحداث السنوات التالية (٨٧٣هـ — ١٤٦٨م) — (٨٧٦هـ — ١٤٧١م) — (٨٩١هـ — ١٤٨٦م) — (٩٠٤هـ — ١٤٩٨م) — (٩١٨هـ — ١٥١٢م) — (٩٢٠هـ — ١٥١٤م) — (٩٢٢هـ — ١٥١٦م) (١٣) ولم تقف سلطنة المماليك مكتوفة الايدي أمام عدوان العربان ، وانما خرجت الجيوش الى الصعيد والبحيرة والشرقية والجيزة للضرب على أيديهم • ويؤكد ابن اياس كيف تزايد فساد العربان في سنة (٩١٨هـ — ١٥١٢م) حتى « تحالفت سبع طوائف من العربان (بالبحيرة) أن يكونوا كلمة واحدة على العصيان •• وقد آل أمر تلك الجهات الى الخراب » (١٤) • كذلك يروي ابن اياس أن خطر العربان اشتد في تلك السنة نفسها في الصعيد واستمر حتى عام (٩٢٢هـ — ١٥١٦م) الذي نهب فيه بنوا عطية

(١٢) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ •

(١٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٥ •

(١٤) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ •

والنعايم « ضياع الشرقية ، وأخذوا منها نحواً من أربعمائة رأس من الغنم ودخوا وادى العباسية » (١٥) .

هناك كذلك عوامل خارجية أثرت في اقتصاديات الدولة المملوكية في نهاية عهدها ، وهي تتمثل في طمع الاعداء في أراضي الدولة ومحاولتهم غزوها بعد أن اتضح لهم أنها في ذلك الدور الأخير من عمرها أضعف من أن تستطيع الدفاع عن كيانها . ويشير ابن اياس في حوادث سنة (٨٧٢ هـ — ١٤٦٧ م) الى ما كان بين سلطنة المماليك وشاه سوار من أمراء التركمان على الحدود الشمالية للدولة — من حروب (١٦) . كما يشير في حوادث سنة (٨٨٨ هـ — ١٤٨٣ م) الى أن على بن دولات بن دلغادر هاجم ملطية في جميع كبير من العساكر « فانزعج السلطان لهذا الخبر » (١٧) . أما هجمات العثمانيين فيشير اليها ابن اياس في حوادث سنة (٨٩٠ هـ — ١٤٨٥ م) و (٨٩١ هـ — ١٤٨٦ م) و (٨٩٣ هـ — ١٤٨٧ م) (١٨) وغيرها . هذا بالإضافة الى بعض الهجمات التي تعرضت لها سلطنة المماليك في هذا الدور ، وجاءت من ناحية البحر المتوسط ، اذ دأب الفرنج وقراصنتهم على مهاجمة شواطئ الدولة وموانئها وقطع الطريق على سفنها التجارية في عرض البحر . من ذلك ما يشير اليه ابن اياس في سنة (٨٧٨ هـ — ١٤٧٣ م) من أنه « جاءت الاخبار من الاسكندرية بأن الفرنج قد تعبثوا ببعض سواحلها وأسروا من المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغر

(١٥) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٧٩ .

(١٦) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ .

(١٧) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٩٩ .

(١٨) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ .

دمياط»^(١٩) . وذكر ابن اياس أحداثا مشابهة تشير الى عدوان الفرنج في البحر المتوسط على موانئ دولة المماليك وسفنها في حوادث سنة (٥٩١٣هـ - ١٥٠٧م) و (٥٩١٤هـ - ١٥٠٨م) و (٥٩١٥هـ - ١٥٠٩م)^(٢٠) . ومن الواضح أن خطورة هذه الهجمات المعادية على أطراف السلطنة المملوكية وسواحلها في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين لا تنقف من الناحية الاقتصادية عند حد ما كانت تحدثه من خراب وتدمير ، وانما كانت تتطلب للحد من خطرهما ومقاومتها نفقات باهظة تلقى على خزانة الدولة مزيدا من الاعباء ، في وقت اشتد طمع الجند وازدادت شراھتهم للمال ، وصاروا لا يتحركون ولا يخرجون في تجريدة الا بعد أن يتقاضوا الثمن اضعافا مضاعفة . وكانت هذه الحروب الدفاعية هي في نفس الوقت حروبا استنزافية تلقى أسباء جديدة ثقيلة على خزانة الدولة وبالتالي فانها زادت الاوضاع الاقتصادية سوءا فوق سوء .

واذ كانت كل هذه العوامل قد أثرت في اضعاف اقتصاديات السلطنة المملوكية في نهاية عھدها ، فإنه لا يخفى علينا أن العامل الاساسي في تدهور الحياة الاقتصادية في أواخر عصر سلطنة المماليك ، انما يكمن في كساد تجارتها . ذلك أنه من المعروف أن دولة المماليك بنت قوتها واستمدت ثروتها من قيامها بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب ، وفي عصر انسدت فيه معظم طرق التجارة الداخلية بسبب ظهور التتار على مسرح الشرق الاوسط ، بحيث لم يبق خارج سيطرتهم الا طريق البحر الاحمر — عبر اراضي دولة المماليك الى البحر المتوسط . ولكن اكتشاف البرتغاليين لطريق

(١٩) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٨٩ .

(٢٠) بن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١١١ ، ١٣٠ ، ١٥٠ .

رأس الرجاء الصالح ووصولهم الى الهند في سنة ١٤٩٨ حرم سلطنة الممالك من المورد الاول لثروتها وقتها ، الى جانب ما كانت تعاني منه آنذاك من تدهور اقتصادي على النحو الذي أشرنا اليه مما أنزل ضربة قاصمة بوضعها الاقتصادي وكان هذا الحدث التاريخي الخطير أشبه بالقشة التي قصمت ظهر البعير .

وقد حاول السلطان الغوري مواجهة الخطر البرتغالي وأرسل حملته الاولى التي هزمت في موقعة ديو عام ١٥٠٩ . وكان عليه أن يواصل جهوده بعد أن علم — كما يروي ابن اياس في حوادث عام (٩١٩هـ — ١٥١٣م) أن الافرنج « قد زاد تشويشهم على التجار في البحر الملح (البحر الاحمر) وصاروا يخطفون البضائع من المراكب ، وقد ملكوا كمران وهي من بعض جهات الهند (والصحيح أنها جزيرة قمران المواجهة للساحل اليمني المطل على البحر الاحمر شمالي الحديدة) ، وقد تكامل من مراكب الفرنج بالبحر نحو عشرين مركبا ، وكثرت الاشاعات بسفر السلطان الى السويس» (٢١) . لكي يتفقد بنفسه بناء أسطوله في البحر الاحمر لمواجهة البرتغاليين الذين حاصروا آنذاك « مدينة سواكن وأن الشريف بركات امير مكة خرج الى جده . . خوفا على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه » (٢٢) .

ويصور ابن اياس ما أصاب اقتصاد الدولة المملوكية آنذاك من خراب نتيجة لكساد تجارتها في عبارة ذكرها في حوادث سنة (٩٢٠هـ — ١٥١٤م) فيقول : « وكان في تلك الايام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحات والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه

(٢١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ .

(٢٢) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٣١ .

القطائع (السفن) في السنة الخالية • وبندر جده خراب بسبب تعبث
الفرنج علي التجار في بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر
جده نحو من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط » (٢٣) •

وأمام هذا التدهور الاقتصادي الذي منيت به الدولة المملوكية
طوال الخمسين سنة الاخيرة من عمرها نتيجة للعوامل التي أشرنا اليها
والتي انتهت بتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح
وانحسارها عن مصر وعالم البحر المتوسط منذ وصول البرتغاليين الى
الهند عام ١٤٩٨ ، فقد حاول سلاطين المماليك في تلك الفترة أن يعالجوا
ذلك التدهور • وقد لجأوا الى أساليب عديدة لتعويض خزانة الدولة عما
فقدته ، ولتمكينهم من النهوض بالاعباء الملقاة على عاتق حكومتهم ، فضلا
عن اشباع المطالب الخاصة بالسلاطين أنفسهم • واذا كانت هذه الأساليب
قد نجحت في توفير بعض الاموال المطلوبة للسلاطين ، الا أنها من الناحية
الاقتصادية زادت الطين بلة ، وأسرعت بالخراب الذي حل بالدولة وجمرافتها
مما عجل بنهايتها (٢٤) •

من ذلك ما لجأ اليه سلاطين المماليك من تطبيق لسياسة الاحتكار التي
توسعوا فيها منذ عهد السلطان برسباي الذي أصدر مرسوما في عام ١٤٣٨
يحرم به شراء التوابل من غير مخازن السلطان • وقامت هذه السياسة
على أساس احتكار السلاطين أصنافا معينة من البضائع لايجوز لاي فرد آخر
أن يتاجر فيها ، مما ضمن للسلاطين ايرادا ضخما وخاصة من وراء بعض
حاصلات الشرق التي احتكر سلاطين المماليك بيعها للتجار الاوربيين •

(٢٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ٣٥٩ •

(٢٤) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادي في دولة

سلاطين المماليك ، ص ٧٨ •

وأما المتجر السلطاني فالمقصود به أن السلطان كان يستغل أمسيوالة بتشغيلها في التجارة طلبا للكسب ، وبذلك ينافس أرباب الاعمال والتجار في أرزاقهم . ويروى ابن اياس عن السلطان الغوري في حوادث سنة (٩١٩هـ — ١٥١٣م) أنه كان « يشتري القمح ويرسله الى الشام فانه كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وصل فيها كل أردب قمح الى سبعة أشرفية ، فكان يشتري القمح من مصر ويرسله الى البلاد الشامية ، فانتشحت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك ، وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد » (٢٥) وهكذا استغل السلطان الغوري الفارق في سعر القمح بين مصر والشام ليشتري كميات كبيرة من القمح لحسابه الخاص ويرسلها الى الشام ليحصل على فرق الثمن ، غير مبال بما يعانيه شعبه في مصر والشام جميعا من جراء هذا الاستغلال .

كما تجايل سلاطين المماليك من أجل الحصول على المال عن طريق مصادرة أموال الناس وأموالهم . فكان يكفي أن تظهر على أحد رجال الدولة دلائل النعمة حتى يكون هدفا سهلا للسلطان يقرر عليه المبالغ الضخمة ليدفعها ، والا فقبض المصير . وكانت أعمال المصادرات تشتد عسفا كلما امتد الوقت بدولة المماليك وازداد عسرها المالي ، حتى اذا ما جاء عصر الغوري — الذي تحولت في عهده التجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح — كانت سياسة المصادرات قد بلغت أشدها . ويروى ابن اياس في حوادث سنة (٩٠٧هـ — ١٥٠١م) أن المماليك عندما طلبوا النفقة من السلطان الغوري « ظل يضبرهم نحو من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات » (٢٦) . ثم يقول ابن اياس في حوادث سنة ٩١٥هـ

(٢٥) ابن اياس : المصدر السابق ٤ ، ص ٣٠٢ .

(٢٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩ .

أفنه « صدور في هذه السنة جماعة كثيرة من أعيان الناس » (٢٧) . ولسم
تقتصر هذه المصادرات على الاموال السائلة والعقارات وانما امتدت الى
غيرها ، حسب حاجة السلطان . وعندما اشتدت حاجة السلطان الى
الاخشاب لبناء السفن في السويس لمنازلة البرتغاليين في سنة (١٩٠٠هـ -
١٥١٣م) ، فان رجاله « صاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غضبا
باليد ، ويرسلونه الى السويس لاجل عمارة المراكب هناك » (٢٨) .

وثمة نوع آخر من المصادرات لجأ اليه سلاطين المماليك في ذلك الدور
لتدبير المال اللازم لهم ، وتمثل ذلك في قطع ارزاق الناس - وخاصة
الفقهاء والمتعلمين وحرمانهم من مرتباتهم العينية أو انقاصها ، حتى انتهى
الامر بأن امتدت أيدي السلاطين الى الاوقاف الشرعية لحرمان مستحقيها
من نصيبهم . وقد اعترض على ذلك التصرف آنذاي قاضي قضاة الحنفية ، على أن
تلك المعارضة لم تحل بين سلاطين المماليك وبين تنفيذ أطماعهم في الاوقاف
فبيروى ابن اياس في حوادث سنة (٩١٤هـ - ١٥٠٨م) كيف أن السلطان
الغوري « نعرض للرزق الاحباسية والاقواف . . فحصل للناس الضرر
الشامل ولاسيما أولاد الناس . . وكانت خادثة مهولة لم يسمع بمثلا » .
ثم يضيف ابن اياس - في حسرة وألم قائلا « وأنا من جملة من وقس
له ذلك » (٢٩) أي أنه كان من جملة من صودرت اقطاعاتهم . وما زال ابن
اياس يقف للسلطان الغوري ليشكو له حاله ، حتى رق له وأمر باعادة
اقطاعه اليه في العام التالي (سنة ٩١٥هـ - ١٥٠٩م) (٣٠) .

(٢٧) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٢٨) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ .

(٢٩) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٥٠ .

(٣٠) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٧٣ .

وئمة وسينة أخرى لجأ إليها سلاطين المماليك للحصول على المال وهي التلاعب بالعملة والتي كان من شأنها حدوث مزيد من التدهور الاقتصادي للسلطنة . ويذكر ابن اياس في حوادث سنة (٨٧٩هـ — ١٤٧٤م) أن السلطان قايتباي ضرب فلوسا جددا وأراد أن يجعل سعرها أعلى من الفلوس العتيق ليجنى السلطان الفرق بين السعريين . وكانت الفلوس تقيم بالوزن لا بالعدد، فجعل السلطان كل رطل من الفلوس الجدد بستوثلثين ، في حين كان كل رطل من الفلوس العتيق بأربعة وعشرين « فخر الناس في هذه الحركة الثلث من أموالها » (٣١) . ولاشك في أن التلاعب بالعملة على هذا النحو من شأنه أن يخلق حالة من عدم الاستقرار بالسوق ، الامر الذي يزيد من ارتباك الأوضاع الاقتصادية بالدولة . كما فرض السلاطين المماليك مكوسا وضرائب لأشباع رغبتهم في الحصول على الاموال ، فالسلطان قايتباي عندما احتاج الى أموال لا خراج تجريدة ضد العثمانيين في سنة (٨٩٢هـ — ١٤٨٦م) أمر المحتسب بجمع اعيان التجار وفرض عليهم أربعين ألف دينار قائلًا لهم « ساعدوني بشيء من المال على خروج التجريدة » (٣٢) . ولكن التجار ضجوا من ذلك ، ومازالت المفاوضات جارية بين الطرفين حتى قبل التجار أن يدفعوا اثني عشر ألف دينار . وبالإضافة الى الضرائب المباشرة التي كان يفرضها السلطان على التجار على شكل اتاوات ، لجأ سلاطين المماليك الى فرض بضائع معينة على التجار ، يشترونها من السلطان بالاثمان التي يحددها هو ، ويخسرون فيها أموالا طائلة ، مما أدى الى زعزعة الحالة الاقتصادية في الاسواق . ويذكر ابن اياس في حوادث سنة (٩١٧هـ — ١٥١١م) ان السلطان الغوري « أرمى على التجار قاطبة

(٣١) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٦ .

(٣٢) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

شاشات وأرزا وأثوابا صوفا ، وأرمى على السوق زيتا وعسلا وزبيبا
وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث ، وصاروا يستحثونهم في سرعة
البحر لاجل النفقة ، فغلقت الأسواق بسبب ذلك وأقامت مفالوة
أياما » (٣٣) .

ولم يكن أهل الريف — من المقطعين وغيرهم بمنجاة من ظلم السلاطين
عندما زادت الأثرة الاقتصادية ، وإنما امتدت يد العنف اليهم ، ففي الوقت
الذي كان رجال السلطان يضيّقون على التجار في العاصمة لسلب أموالهم ،
كان الكشاف في الأقاليم ينفذون تعاليم السلطان بجمع الأموال من المقطعين
كملا لجا السلطان إلى جمع خراج الأرض من المزارعين قبل استحقاقه وقبل
جمع المحصول الجديد ، بل حتى قبل موسم فيضان النيل ، مما عرضهم
لكثير من المظالم . ومن ذلك ما أورده ابن اياس في حوادث سنة (٨٩١٨ —
١٥١٢م) من أن السلطان الغوري رسم « لكشاف الشرقية وكشاف الغربية بأن
ينزلوا على البلاد ويستخرجوا من الفلاحين الحمایات والشيخة وقدم
الكشاف عن سنة ثمان عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل وقبل أن
تنزل النقطة وينادي على النيل ، فحصل للمقطعين غالية الضرر ، وصارت
الكشاف تنزل على البلاد وتكبس على الفلاحين ، ويستخرجون منهم الأموال
بالضرب ، والذي يهرب يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم ، فخرّب
غالب البلاد ، ورحلت عنها الفلاحون » (٣٤) . وتوضح الفقرة الأخيرة
من عبارة ابن اياس مدى التدهور الاقتصادي الذي حل بريف مصر آنذاك
لحرص المالك على جمع الأموال بكافة الطرق بعد أن فقدوا عوائد التجارة

(٣٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٢٤) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

عقب تيجولها الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ نهاية القرن الخامس عشر
وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين •

ولم يكن صعيد مضر أحسن حالا من الوجه البحرى اذ كان رجال
السلطان الغورى يغتصبون الكثير من الخيل ونحوها فى أوقات الحاجة ،
فكانوا ينزلون على كل بلد ويفرضون عليه فرسين قيمتهما مائة دينار ،
فاذا كانت البلدة كبيرة فرضوا عليها أربعة • ويروى ابن اياس فى حوادث
(سنة ٨٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م) أن الفلاحين ضجوا من ذلك « واخلوا من البلاد ،
وتركوا زروعهم فى الارض ورحلوا ، وخرب بعض البلاد فى هذه
الجرعة •• » (٣٥) وهكذا أدت هذه السياسة التى استخدمها الغورى
الى خراب الزرع والضرع •

وزاد من ارتباك الاوضاع الاقتصادية فى عهد السلطان الغورى ما عرف
باسم المشاهرة والمجاعة ، وهى ضريبة تجمع من السوق وتدفع للمحتسب
كل شهر ليوردها للخزائن السلطانية • وقد بلغ من قسوة هذه الضريبة
أن زادت شهريا على الالخي دينار • ويقول ابن اياس فى حوادث (سنة
٨٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م) أن هذه الضريبة كانت « من اكبر اسباب الفساد
فى حق المسلمين » (٣٦) • نظرا لان الباعة اضطروا الى تعويض قيمة هذه
الضريبة عن طريق رفع أثمان البضائع فأشتد الغلاء وعز وجود أصناف
كثيرة من البضائع حتى اضطر السلطان الى الغائها فى السنة المذكورة •

وفى الوقت الذى كان التجار داخل البلاد يتعرضون لهذه المظالم التى
يقع جزء منها بدورهم على المستهلك نتيجة للمضائق المالية التى اجتاحت البلاد ،

(٣٥) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١—٣٢ •

(٣٦) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٣٢ •

فقدي تعرض التجار الأجانب الوافدون على موانئ الدولة في مصر والحجاز وغيرها لنفس السياسة التعسفية التي طبقها سلاطين المماليك في تلك الفترة. الأخيرة من حياة الدولة المملوكية الأمر الذي جعل التجار ينصرفون عن المتاجرة مع الدولة في الوقت الذي ظهرت معالم الطريق الجديد حول إفريقيا إلى الهند . وهكذا ذلت الإسكندرية ودمياط وجدة وغيرها من ثغور الدولة وأقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار تجنباً لدفع المكوس الباهظة التي فرضها سلاطين المماليك . ويقول ابن أياس عن مدينة الإسكندرية في حوادث (٩٢٠ هـ — ١٥١٤ م) عندما زارها السلطان الغوري أنها كانت « في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صابروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال . فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز فلم يوجد بها ، ولا الأكل ووجد بعض الدكاكين مفتحة والبقية لم تفتح . » (٣٧) .

وما يقال عن الإسكندرية ينطبق على غيرها من ثغور الدولة . اذ يقول ابن أياس في حوادث سنة (٩٢٢ هـ — ١٥١٦ م) مانصه « وكان حسين نائب جده يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنع التجار من دخول بندر جده وآل أمره إلى الخراب ، وكذلك الإسكندرية ودمياط . فامتنع تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج » (٣٨) .

وواضح من كل ما تقدم أن تدهور الأحوال الاقتصادية في أواخر

» (٣٧) ابن أياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ .

(٣٨) ابن أياس : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٨٣ .

عصر دولة المماليك لم يكن نتيجة عامل واحد أو سبب بعينه ، وإنما جاء وليد أسباب وعوامل عدة تضافرت لتنهز قواعد تلك الدولة هزا عنيفا ، حتى فقيدت أسباب رخائها وثروتها ^(٣٩) وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط عقب وصول البرتغاليين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ من أبرز عوامل التدهور الاقتصادي وفي نهايتها من ناحية التوقيت الزمني ، مما جعل هذا الحدث التاريخي الهام أشبه بالقشة التي قصمت ظهر البعير كما سبق أن أشرت • ولا يمكن فهم أبعاد هذا الحدث الهام دون التعرف على العوامل الاخرى التي عرضناها والتي أدت الى تدهور الاوضاع الاقتصادية في الدولة المملوكية ، حيث تضلقت جميعها في انهيار الدولة اقتصاديا ، وبالتالي هزيمتها استراتيجيا وسياسيا أمام الدولة العثمانية في سنة (٩٢٣هـ - ١٥١٧م) وهو ما سوف نحالجه في الصفحات التالية مع اظهار انعكاسات هذا الحدث التاريخي على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر الميلادي •

(ثانيا) الاثر السياسي والدبلوماسي لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :

شهدت سلطنة المماليك في نهاية عهدها منذ أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين الكثير من الاضطرابات السياسية الداخلية التي جاءت في نفس الوقت الذي تمكن فيه البرتغاليون من الدوران حول افريقيا والوصول الى الهند في سنة ١٤٩٨ ، وبداية سيطرتهم على

(٣٩) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك ص ٨٨ •

التجارة الشرقية ، وبالتالي حرمان مصر وعالم البحر المتوسط من أهم الموارد المالية في ذلك الحين . وقد أدى هذا التحول الذي أثر في اقتصاديات الدولة المملوكية بوجه خاص الى التأثير بالتالى على الحياة السياسية فيها والتي اتسمت بالتنافس والصراع لاعتبارات متعددة ، زاد تفاقمها عندما ضاقت الموارد المالية وتدهورت اقتصاديات البلاد نتيجة لتحول التجارة العالمية عنها الى طريق رأس الرجاء الصالح .

وكدليل على الاضطراب الذى ساد الحياة السياسية في أواخر عهد السلطنة المملوكية ما أورده الدكتور محمد أمين في دراسته لوثيقة تفويض من عصر العادل طومان باى ، صدرت في (١٢ رجب ٩٠٦ هـ — أول فبراير ١٥٠١ م) من الاشرف جان بلاط ، ويستدل منها على أن طومان باى العادل رفع اثنين من كبار الامراء الى عرش سلطنة المماليك قبل أن يلى هو نفسه العرش . وأن هذه الوثيقة تمثل فترة اضطراب وقلق شديدين في أواخر عصر سلطنة المماليك . والوثيقة رغم صغر حجمها فانها تلقى الضوء على العلاقات التى سادت بين كبار الامراء المتنافسين على العرش ، وهى تدور بين أربعة أشخاص تولى ثلاثة منهم عرش سلطنة المماليك ، وتمثل نوعا من تقسيم الغنائم بين المشتركين في الصراع بعد أن تم توزيع المناصب الكبرى عليهم ، وذلك في الفترة التى أعقبت وفاة السلطان قايتباى ، وحتى تولية السلطان الاشرف قونصوه الغورى . وقد ولى الحكم في هذه الفترة القصيرة ، والتي لم تتجاوز الخمس سنوات خمسة سلاطين تولى أحدهم وهو محمد بن قايتباى السلطنة مرتين ، وانتهى الامر بقتله على يد الامراء المماليك ، كما تولى أحدهم وهو قونصوه عرش السلطنة مدة ثلاثة أيام فقط ، ثم خلعه الامراء وهذه الفترة تمتد بين عامي (٩٠١ هـ — ١٤٩٦ م) و (٩٠٦ هـ — ١٥٠١ م) وكانت هذه الفترة هى بداية النهاية بالنسبة لسلطنة

المماليك ، وبخاصة أن هذه الاضطرابات الداخلية جاءت في نفس الوقت الذي حرمت فيه مصر من التجارة العالمية ، وبالتالي حرمت من أهم مواردها المالية حينذاك (٤٠) .

وتجدر الإشارة كذلك الى ظاهرة الانقسام في صفوف المماليك التي بدت عند قيام السلطان قانصوه الغورى بمواجهة زحف السلطان سليم الاول العثماني في عام (١٥٢٢ هـ - ١٥١٦ م) على بلاد الشام ، (٤١) وكان ذلك انعكاسا للاحوال الاقتصادية السيئة التي كان يعاني منها المماليك في نهاية عهد سلطنتهم . فالسلطان الغورى كان يتخوف من نائبه على الشام سييى ويظن أنه يسعى الى أن يحل محله ، خاصة وأن نواب الشام كثيرا ما كانوا يثورون ضد سلاطينهم ، وأحيانا يتولون السلطنة من دونهم . كما كان المماليك الذين صاحبوا الغورى الى الشام في نزاع فيما بينهم . فمماليك الجلبان بلغ عددهم في عهد الغورى ثلاثة عشر ألفا ، وأصبحوا يعادون مماليك السلاطين قبله ، الذين عرفوا بالمماليك السلطانية أو القرانص أو القرانصة . وكان أساس النزاع بين الفريقين تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب المماليك الآخرين ، بل أنه كان يتذبذب بينهما أحيانا مما يثير الغيرة والحقد بينهم ، في وقت كانت تعاني فيه البلاد من التدهور الاقتصادي ووجود قحط آنذاك (٤٢) . وأثناء المعركة التي دارت

(٤٠) محمد محمد أمين (دكتور) : تفويض من عصر العادل طومان باى «صانع السلاطين» مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد السابع والعشرون ١٩٨١ ص ٥٦ - ٦١ .

Holt, P.M. : Egypt and the Fertile Crescent 1516 - 1922, A political History
p. 38. (٤١)

(٤٢) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص ١٢٢ .

بين الغورى وسليم الاول فى مرج دابق يوم الاحد (١٥ رجب ٥٩٢٢ هـ — ٢٤ اغسطس ١٥١٦ سرت اشاعة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرانصة ، حتى أنه طلب من مماليكه من الجلبان ألا يقاتلوا ، مما جعل القرانصة الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال ، الامر الذى ترتب عليه الهزيمة الكاملة ، وفرار الممالك بجميع فئاتهم • وكان خاير بك أول من هرب من الامراء ، وتبعه جان بردى ^(٤٣) ، ومن المرجح أنهما كانا متفقين من الباطن مع السلطان سليم الاول ، حيث كان كلاهما يرى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى • وقد حاول الغورى أن يوقف فرار الممالك — سيما من الجلبان — حيث أصبح فى نفر قليل ، وكان ينادى بصوته : « هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة » ، الا أن الممالك استمروا يفرون ^(٤٤) ، مما ترتب عليه هزيمة الغورى ومقتله فى تلك المعركة • وهذا يوضح مدى التمزق الذى أصاب وحدة الصف المملوكى الذى تواكب مع ظاهرة التدهور الاقتصادى الناتج عن تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط آنذاك •

— الاثر الدبلوماسى :

واذا انتقلنا الى النشاط الدبلوماسى الذى ظهر فى مصر وعالم البحر المتوسط نتيجة لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر فإننا سنجد أن البنادقة قد أحسوا بمدى خطورة تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين منذ وصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ ،

Holt, P. M. : Op Cit., pp. 38, 39.

(٤٣)

(٤٤) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، ص ١٢٥—١٢٧ •

والذى أدى الى فقدانهم لمصدر ثروتهم الناتج عن اشتغالهم بالتجارة العالمية آنذاك . لهذا فان البنادقة أخذوا يراقبون مشروعات البرتغاليين وتحركات سفنهم ، ويحاولون من جانبهم اقناع سفراء ملوك الهند في لشبونة بعدم مقدرة البرتغاليين على نقل السلع الشرقية بدون مساعدة مالية من البندقية . وكانت هضبة الدكن في شبه جزيرة الهند مكونة من مملكتين هما مملكة « باهمانى Bahmani » التى أسسها « باهمان شاه » عام ١٣٤٧ ، ومملكة « فيجايانجر Vijayandgar » في جنوبها ، وفي نهاية القرن الخامس عشر انقسمت مملكة « باهمانى » وحدها الى خمسة أقسام، وهى المعروفة بملوك الطوائف وهم : بنو عماد شاه ، وبنو نظام شاه ، وبنو بريد شاه ، وبنو عادل شاه ، وبنو قطب شاه (٤٥) . وقد أصبح لهؤلاء الملوك سفراء لدى ملك البرتغال في لشبونة بعد تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد حرص البنادقة على تكوين تحالف مع الممالك لمواجهة النشاط التجارى البرتغالى الذى سيطر على طريق رأس الرجاء الصالح وحول التجارة العالمية اليه ولهذا جاءت سفارات البندقية الدبلوماسية المتكررة الى بلاط السلطان المملوكى قونصوه الغورى ، وأشهرها سفارة «باندنو سانوتو Banedetto Sanuto» الى الغورى في سنة ١٥٠٣ م ، وأشار هذا السفير على السلطان الغورى أن يبعث برسله الى أمراء الهند لحملهم على قطع علاقاتهم بالبرتغاليين ، وتقلل موانئهم في وجه السفن البرتغالية . كذلك طلب السفير من الغورى أن يعمل على تخفيض الاثمان الباهظة التى

تباع بها التوابل في الاسكندرية. حتى يستطيع البنادقة منافسة خصومهم في الاسواق الاوربية (٤٦) .

غير أن السلطان الغورى رأى أن يبعث برسالة الى بعض الدول الاوربية ، لتعمل هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند ، وهدد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد المسيحيين في بلاده ، ولاسبما بالقدس . بل أنه هدد كذلك بقفل الاماكن المقدسة ، وقام بحمل هذه الرسالة راهب أسباني فرنسيسكانى في بيت المقدس اسمه الاخ « مورو Mouro » ، وكلفه الغورى بالمرور في طريقه بالبندقية ، فقصد هذا الراهب الى روما حيث التقى بالبابا يوليوس الثانى في ربيع عام ١٥٠٤ وأحسن البابا لقاءه ووعدته بالكتابة الى ملك البرتغال لوقف ارسال الحملات الحربية الى الهند وقد أتم هذا الراهب جولته في بلاط كل من أسبانيا والبرتغال دون أن تحقق مهمته الدبلوماسية أى جدوى . وعندما زاد احساس البندقية بخطورة الموقف ، أرسلت سفارة دبلوماسية أخرى الى الغورى في سنة ١٥٠٤ ، وتركزت مهمتها حول تقديم عروض أحسن وأقوى للسلطان نظرا لا طراد عجز البنادقة عن مقاومة البرتغاليين الذين غمروا أسواق أوروبا بالمنتجات الشرقية ، لدرجة أن قام حزب كبير في البندقية يطالب الحكومة بالشراء من لشبونة وليس من الاسكندرية . ولذا اقترحت من جديد سفارة عام ١٥٠٤ ، أن يغرق السلطان الغورى الاسواق بالتوابل حتى يستطيع منافسة البرتغال ، وأن يستخدم نفوذه لدى أمراء الهند لقطع صلاتهم بالبرتغاليين . ثم انها اقترحت كذلك شق قناة في برزخ السويس ، ونظرا لانها أهملت موالاة المشروع ، فقد ترك دون تنفيذ (٤٧) .

(٤٦) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .

Charles, Roux, J. : L'Isthme et le Canal de Suez, T.I., p.45

(٤٧) .

وقد اتجه السلطان قونصوه الغورى الى مواجهة النشاط البرتغالى بالقوة عندما أصدر أمره فى سبتمبر سنة ١٥٠٥ بأعداد حملة حربية بقيادة الامير حسين الكردى نائب جده ، وتكونت من خمسين سفينة من نوع «الغربة» وتحركت الحملة من القاهرة وسارت فى النيل عن طريق القناة (خليج أمير المؤمنين) فى شرق الدلتا الى البحيرات المرة الى السويس ومنها الى ينبع فجده ، ثم غادرت جدة واسنولت فى طريقها على سواكن عام ١٥٠٦ وسوف نتحدث عن هذه الحملة بالتفصيل عند معالجة الاثر الاستراتيجى ، غير أنه يهمنا أن نشير فى هذا الصدد الى أن الغورى قد أرسل سفيره الترجمان تغرى بردى الاسبانى بندا الى أوربا فى أبريل سنة ١٥٠٦ ، واستغرقت رحلة هذا الترجمان ثمانية عشر شهرا ، زار فيها قبرص التابعة للسلطنة المملوكية آنذاك ، وأصطحب منها من أرشده الى رودس حيث استقبله الرئيس « امرى دامبواز Aimery d'Amboise » ثم خرج تغرى بردى من رودس الى البندقية حيث وقع اتفاقية تجارية جديدة معها . ولم تحقق هذه السفارة كسابقتها أى جدوى كما حدث مع سفارة الراهب مورو من قبل ، وعاد تغرى بردى الى مصر فى سبتمبر عام ١٥٠٧ (٤٨) .

وعندما يثبت البندقية من مقدرة المماليك على التغلب على البرتغاليين واعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم ، فانها لجأت الى التعاون مع الصفويين عليهم ينجحون فيما فشل المماليك فى تحقيقه ، مما أدى الى تدهور العلاقة بين السلطنة المملوكية والبندقية . اذ حدث أن قبض السلطان الغورى على بعض البنادقة ومعهم خطابا من

(٤٨) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

الشاه اسماعيل الصفوى للاستعانة بدولة أوربيه للقيام بهجوم بحرى على سواحل مصر ، على حين يقوم الصفوى بمهاجمتها برا ، ولم يذكر ابن اياس اسم هذه الدولة ، ولكن المصادر الاوربية أشارت الى أن هذه الدولة هى جمهورية البندقية * وهذا ما جعل السلطان الغورى يقبض على قنصل البندقية فى دمشق ، وجىء به مكبلا الى القاهرة ، كما قبض على زملائه الاخرين فى طرابلس والاسكندرية ، وحقق معهم ، وحينئذ لم يسع الغورى الا أن ينفذ ما سبق أن هدد به وهو قفل الاماكن المقدسة فى القدس ، فقبض على جميع مسيحيي القدس وأغلق كنيسة القيامة وصادر محتوياتها فى يناير سنة ١٥١١ ، وفى نفس الوقت علم بخيانة الترجمان تغرى بردى ، اذ كاتب الدول الاوربية بضعف الممالك الحربى وعدم تحصين السواحل المصرية التحصين الكافى فقبض عليه فى مارس ١٥١١ (٤٩) .

وقد توالى احتجاجات الدول الاوربية على تصرف الغورى ، وجاءت الى مصر سفارة فرنسية من قبل الملك لويس الثانى عشر ملك فرنسا فى مارس سنة ١٥١٢ ، وكان هدف هذه السفارة عقد اتفاق تجارى مع مصر واطلاق حرية التجارة فى موانئ مصر والشام والسماح للحجاج بزيارة الاماكن المقدسة كالمعتاد ، ووعدت السفارة بمساعدة فرنسا ضد بلاد البرتغال ، غير أن السفير الفرنسى لم ينجح الا فى اطلاق سراح الاسرى الفرنسيين * ولما انتشرت أنباء السفارة الفرنسية ، أسرعت البندقية وأوقدت بعثة

دبلوماسية على رأسها « دومينكو تريفزانى Domenico Trevisani » واستطاع هذا السفير أن يعقد أول اجتماع مع السلطان الغورى فى مايو سنة ١٥١٢ م ، وبدأت البعثة عملها وفق برنامج مفصل محدد فى لين وسلاسة

(٤٩) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

مع شيء من العناد والصلابة يحمل على الاعجاب . وكان يظاهر البعثة بعض قطع من الاسطول التجارى البندقى الذى مر بكريت وقبرص والاسكندرية ، فسر السلطان الغورى مما أظهره البنادقة ، أصدقاؤه القديما ، من اخلاص ، ونجحت مهمة السفير فى اطلاق سراح المسجونين ، وأعيدت الصداقة والصلة بين السلطنة المملوكية والبندقية ، وتعهد البنادقة بتزويد الممالك بالاسلحة والاخشاب لمواصلة نضالهم ضد البرتغاليين ، ثم غادر « تريفزانى » مصر فى أغسطس سنة ١٥١٢م^(٥٠) . ومن الواضح أن الغورى كان يهدف آنذاك الى تجديد علاقاته مع البنادقة حتى يحصل على مساعداتهم له فى مواجهة النشاط البرتغالى المتزايد فى البحار الشرقية .

وعندما تم للعثمانيين السيطرة على مصر بدخول السلطان سليم الاول مدينة القاهرة فى اليوم الثالث من شهر المحرم عام ٩٢٣هـ الموافق السادس والعشرين من شهر يناير عام ١٥١٧م وامتدت اقامته فيها ثمانية أشهر ، فقد أدرك العثمانيون أهمية مصر كمعبر للتجارة العالمية ، ومدى ما أصابها من تدهور اقتصادى نتيجة لتحول هذه التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين منذ وصولهم الى الهند فى سنة ١٤٩٨ . ولهذا فقد حرص السلطان سليم الاول على انعاش حركة التجارة ، التى كان يرد الى مصر آنذاك جزء منها عبر الطرق البرية ، ومن المناطق المطلة على البحر الاحمر والخليج العربى الداخلى ، أى من النواحي الواقعة شرقى مصر وجنوبها وغربها ، والتى كان من دواعى استمرار الحركة التجارية فيها رحلة الحج الى الاراضى المقدسة فى الحجاز حيث كان الحجاج

(٥٠) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

يحضرون معهم الكثير من المتاجر الشرقية لتغطية تكاليف رحلاتهم ، ولممارسة النشاط التجارى عبر الطرق المذكورة * ولهذا فقد أراد السلطان سليم أن يضمن تسويق ما يصل الى مصر من هذه التجارة عن طريق البنادقة الذين يقومون بتوزيعها في أوروبا وذلك بعقد معاهدة تجارية معهم لهذا الغرض * وكان للعثمانيين خبرة سابقة في هذا المجال حيث عقد السلطان محمد الثانى الفاتح اتفاقية مع الجنوبيين في الحادى عشر من مارس عام ١٤٥٤ ، واتفاقية أخرى مع البنادقة في الثامن عشر من أبريل من نفس السنة اى في العام الثانى مباشرة لفتح العثمانيين للقسطنطينية (٥١) .

وهكذا عقد السلطان سليم الاول معاهدة مع البندقية في النسانى والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣هـ الموافق الرابع عشر من فبراير عام ١٥١٧م لتشجيع البنادقة على القدوم الى الاسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى في جو من الطمانينة والعدالة والامن * وقد نشر الاستاذ « اتين كومب Etienne Combe » نصوص هذه المعاهدة باللغة الفرنسية (٥٢) ونشرت بعد ذلك مترجمة الى العربية (٥٣) وجاءت في دييجتها ملاحظة تفيد بان التعليمات التى أوردتها موجهة بصفة خاصة الى حاكم مدينة الاسكندرية وموظفيها العموميين ومفتشى وضباط الشرطة كى يحاطوا علما بما تم الاتفاق عليه بين المتعاقدين على الامتيازات السابق منحها لهم ابام المالىك بعد موافقة السلطان سليم الاول عليها * واشارت

(٥١) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق : ص ٢٥ — ٢٨ .

Crombe. E. : *Precis de l'Histoire d' Egypte* T. III. p.6 ff. (Wiet. G). I :

Traite : Veneto - Turc De 1517.

(٥٢)

(٥٣) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٩ — ٣٥ .

عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها : الجزء الثانى ص ٧٠٠ — ٧٠٦ .

المادة الاولى من هذه المعاهدة الى أن جميع البراءات الممنوحة للبنادقة من قبل صار الموافقة والتصديق عليها • وان رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون بترحاب من الجميع ولا يحق لاي فرد أن يهينهم أو يتكبر عليهم في الموانى المصرية عامة ، وان من حقهم البيع والشراء والاخذ والعطاء ، ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الامم الاخرى بالمدن المصرية ، وان يعلن هذا لجميع القضاة والهيئات المسئولة ، وليس من حق اى فرد الخروج على هذه القوانين ، كما يجب معاملتهم حسب الاصول والعادات المرعية بدون اى تغيير أو تعديل • ؟

وأوردت المادة الثانية من هذه المعاهدة بين العثمانيين والبنادقة الالتزام بعدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو متاجسهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما في داخل مخازنهم ، كما لا يحق لاي فرد أن يجبرهم على البيع اذا لم يوافقوا على ذلك ، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية أو لا لزوم لها • بينما أشارت المادة الثالثة الى أنه بإمكان القنصل البندقية أن يبيع ويشترى بالنقد بدون حدود • وحددت المادة الرابعة أن القنصل يحصل على مرتبه مجمدا كل أربعة شهور • وأشارت المادة الخامسة الى أن القنصل دون سواء هو الذى يياشر الشئون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبيت في الامور لصالحهم • أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى الاسلامى لينقض قانونا أو حكما أصدره القنصل ، فلا يستمع له ولا يحق للقاضى استقباله أو نظر شكواه وعليه أن يعيده الى قنصله ، واذا رغب القنصل في طرد أحد البنادقة فعلى القاضى أن يعينه في ذلك • كما منح القنصل حق ابداء الرأى في سفر الافراد على سفن بلاده ، ولا يحق لاي فرد كان أن يغادر الاسكندرية على ظهر

احدى سفن البندقية ليعود الى وطنه أو يبارحها لاي قطر شاء الا بعد الحصول على تأشيرة خروج من القنصل نفسه .

وحددت المادة السادسة من المعاهدة الاجراءات المسموح باتخاذها ازاء سفن البنادقة عند وصولها الى الاسكندرية فأشارت الى أنه اذا وصلت أى سفينة من البندقية الى الاسكندرية أو باسم البنادقة ، فلا يحق لاي موظف أن يرتقيها ويحصل منها على ما يريد من معلومات أو بيانات ، ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها ويسمح لهم بصعود السفينة في حالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع المشتراه السلع التي تحملها السفن « كالعسل ، والفاكهة » . وحرمت المادة السابعة على أى فرد سواء كان حاكم مدينة الاسكندرية أو عين من أعيانها أو تجارها أو أى فرد من أفراد الشعب أو لقبطانها على سفن الميناء أن يستولوا على أى سفينة للبنادقة تصل للميناء ، أو على حمولتها أو قلوها أو مجاديفها لاي سبب سواء كان قرضاً أو شراء . وأشارت المادة الثامنة الى أنه يصير تنفيذ كل التجديدات أو المبانى اللازمة أو الاعمال الضرورية في فندق البنادقة . واذا رغب القنصل في بناء مبنى جميل خاص به فله ما يشاء ، وممنوع منعاً باتاً التعرض له أو رفع أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على أى فرد مضايقتهم أو التعرض لهم اذا رغبوا في استخدام صناع من البندقية أو من الاجانب دون الوطنيين . ونصت المادة التاسعة على أنه اذا رغب قنصل البندقية في مقابلة أى فرد من الحكومة في دواوينهم وامتنطى صهوة جواده أو رغب في الخروج الى الحدائق العامة أو أى مكان في أطراف الاسكندرية فله أن يفعل ما يشاء وليس لاي فرد أن يعترضه .

وقد أشارت المادة العاشرة الى أن السلع الخاصة بالبنادقة والتي تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لاصحابها ، أما السلع التي تقذفها

الأمواج الى الشاطئء نتيجة الغرق لاحدى السفن فهى ترد لاصحابها ان عرفوا أو اثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع أو ترد لقنصل البندقية أما بالنسبة للسفن التى تصل للشاطئء سليمة بعد انقاذها فيجب صيانتها وجاء فى المادة الحادية عشر أن سفن البنادقة التى تلجأ لميناء الاسكندرية لسوء الاحوال الجوية ولا ترغب فى تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها اذا نم يكن عليها سلع للاسكندرية ، واذا كان عليها سلع خاصة بالاسكندرية فلا يحق لها أن تفرغها فى أى ميناء الا فى الاسكندرية نفسها . واذا كانت هذه السفن تحمل سلعاً لم ينص عليها فى المعاهدات ولا يتاجر فيها الا فى الاسكندرية فتمنع من التعامل أو الملاحة على طول سواحل مصر .

أما بالنسبة للعلاقات السياسية فقد أوردت المادة الثانية عشرة من المعاهدة المعقودة بين البندقية والسلطان سليم الاول عام ١٥١٧ أنه اذا حدث أى حادث لاحد رعايا السلطان فى البندقية أو الجزر التى تقع تحت سيطرتها فلا يسال القنصل عن هذا ، كما أنه لا يتحمل النتائج المترتبة على الحادث . أما من يكون مديونا لاحد رعايا السلطان فانه يحجز حتى يوفى الدين ويسرى ذلك على الضامن ، ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان فى أمان تام فى موانى البندقية والبلاد الخاضعة لها . كما أعفت المادة الثالثة عشرة القنصل البندقى من دفع ضريبة الايراد أو ضرائب أخرى ما عد فى حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء . واشترطت المادة الرابعة عشرة أنه اذا أصر القراصنة على أسر سفن للبنادقة سم جاءوا لبيعها فى موانىء السلطان فمحظور على أى فرد سراؤها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار . ونصت المادة الخامسة عشرة من المعاهدة أنه اذا حدث خلاف بين عربى وأجنبى سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجر أو أى

مواطن عادى أو عضو فى وكالتهم فلا يحق لاي فرد اهانتة أو الحاق الضرر به • واشترطت المادة السادسة عشرة أن كل هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل فى سجل خاص ويتعرف عليها كل مسئول بالولاية وكل من له علاقة بالاجانب أو بالحكم فى مصر • وبموجب المادة السابعة عشرة يكون لقنصل البندقية السلطة التامة اذا رغب فى أن يقيم نائبا عنه « قنصل بالنيابة » أو نائب قنصل فى البرلس وله أن يفعل ذلك كلما ثساء دون استئذان السلطان •

وقد قررت المادة الثامنة عشرة أن قنصل البنادقة قد عرض أنه حسب المعتاد آنذا كانت تصل بعض السفن من كريت أو اقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من الزيت اللازم للسفن وكان المعتاد بيعها على السفن ولكن سلطات الاسكندرية كانت ترفض هذا البيع لكى تبيع مالىديها فى مستودعاتها • هذا الامر كما أشارت تلك المادة كان ينبغى أن يتدارك ، فسفن البندقية كانت تستطيع منذ عقد المعاهدة فصاعدا بيع هذا الزيت دون انزاله للساحل ولا يعترضها أى فرد • وفى حالة وصول هذه السفن الى بولاق تتبمع القواعد المرسومة فى هذا الميناء • وقد أشار قنصل البندقية — فى المادة التاسعة عشرة — الى العبيد والفقراء الاجانب الذين يعيشون فى الاسكندرية واعتادوا الورود الى فندق البنادقة لكى يأكلوا • وكان اذا مات أحد العبيد بالفنادق فالقنصل مطالب بدفع ثمنة ، وكان الثمن يفرض مرتقعا ، وقد اشترطت هذه المادة أن هذا يصير ممنوعا منذ ذلك الحين • كذلك حظرت المادة العشرون على موظفى الجمرك والحمالين والكشافين مضايقة البنادقة فى حالة اعادة تسليمهم الفواكه أو سلع أخرى تحملها سفنهم • وفيما يتعلق برسوم وأجور الحمالين والكشافين فقد نصت المادة الحادية والعشرون ، على أن يدفع دينار واحد عن كل سلة توابل مملوءة ويحملها الكشاف البحرى

ويحصل الحمال على دينار واحد عن كل سلة يحملها • وقررت المادة الثانية والعشرون انقاص وتخفيض الضرائب التي تدفع عن يموت من الاجانب في بلاد السلطان • كما قررت المادة الثالثة والعشرون أن الافرنجى الذى يرد للقاهرة من الاسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لاف حله ولا فى ترحاله • واختصت المادة الرابعة والعشرون من المعاهد المعقودة بين السلطان سليم الاول والبندقية عام ١٥١٧ بالاشارة الى أن السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء التجاريين لهم حق استخدام تراجمه ولا يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينة • كما قررت المادة الخامسة والعشرون أنه فى حالة نقل البضائع المستوردة المصدرة من الجمرک للسفن وبالعكس لا يطلب القنصل ولا التاجر بشو ما ، كما لا يحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكه المحفوظة والمسكر والطازجة للمسافرين • هذا بينما حددت المادة السادسة والعشرون أ لايجوز اطلاقاً مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتنزهم فى حدائ الاسكندرية وعلى ضفاف القناة أو فى أى مكان آخر • وأكدت المادة الساب والعشرون على حق التجار البنادقة فى شحن وتوزيع وتفريغ سلعهم قواربهم وسفنهم الخاصة ، كما أكدت المادة الثامنة والعشرون أن للبنادقة حق شحن وتوزيع وتفريغ سلعهم فى قواربهم وسفنهم الخاصة • وسوغت الماد التاسعة والعشرون للكشافيين بالقيام بعملهم فى حالات الشحن والتفريغ يكون بموافقة ومرافقة البنادقة • وما يفسده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يعوض عنه البنادقة •

واشترطت المادة الثلاثون ، بأنه لا يتصدى أى فرد للقنصل أو لتجار البنادقة الا عن طريق القضاء وأمام المحاكم ، ويراعى ألا يؤخذ الابن بجزيرة الاب ، ولا الاب بجزيرة الابن ، الا اذا كان أحدهما ضامناً للآخر

شخصيا وماليا ، أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة • كما اشترطت المادة الحادية والثلاثون كذلك أن جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون الى موانئ مصر يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع • وفي خاتمة المعاهدة نصت المادة الثانية والثلاثون على أن قنصل البندقية في الاسكندرية قد قدم مذكرة قرر فيها أن البنادقة كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالاعفاء من ضريبة البهار • ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قانصوه الغوري رسوما جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنويا • ويطلب القنصل باعادة تقرير هذا الاعفاء الضريبي وتقرر الاستجابة لهذا الطلب •

كانت هذه هي البنود الثانية والثلاثون للمعاهدة التي عقدت بين السلطان سليم الاول والبنادقة عقب فتح العثمانيين لمصر في سنة ١٥١٧ • وهى تشكل دليلا تاريخيا على حرص الاتراك العثمانيين على تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر التى غدت ولاية عثمانية حتى تعود الحركة التجارية بقدر الامكان الى نشاطها المعهود قبيل تحول التجارة العالمية الى طريق رأى الرجاء الصالح • ولاشك ان هذه المعاهدة تعد أبلغ رد على الفرية التى يرددها بعض المؤرخين والباحثين المتحاملين على الدولة العثمانية والذين يدعون أنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوروبا • كما أن هذه المعاهدة تميزت بوجود فارق بينها وبين المعاهدات التى عقدها السلطان سليمان المشرع وخلفاؤه تباعا مع الدول الاوربية فى هذا الصدد • فبينما كان الهدف من المعاهدات الاخيرة هو تشجيع رعايا الدول الاوربية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية بوجه عام ، فقد كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى فى

مصر والاسيكتندرية بوجه خاص . كذلك ترجع أهمية معاهدة البندقية الى أن كثيرا من نصوصها ، او نصوصا على غرارها ، قد أدرجت بعد ذلك في المعاهدات اللاحقة التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الاوربية ، إذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات لرعاياها آنذاك ، فكانت كل دولة أوربية تحرص على أن تجيء المعاهدة التي تعقدها مع الدولة العثمانية جامعة وشاملة لكل الامتيازات التي سبق تقريرها لغيرها (٥٤) .

نفى عهد السلطان سليمان المشرع خطط الدولة العثمانية خطوات هامة في سياسة الانفتاح تجاريا مع عدد من الدول الاوربية لتنشيط الحركة التجارية التي أصابها الضعف الملحوظ عقب تحول التجارة العالمية الى ضيق رأس الرجاء الصالح . اذ عقد السلطان سليمان المشرع مع فرانسوا الاول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨ جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التي سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الجراكسة للفرنسيين « وأهل كتالونيا Les Catalans » وكانت المعاهدات الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الامن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم في اتناء تواجدهم في ممتلكات الدولة . كما تكفل لهم حرية التجارة والتنقل برا وبحرا دون أن يمسه سوء ودون أن يتعرضوا لمضايقات من السلطات العثمانية . بل انها تنظم اقامتهم في احياء او خانات خاصة مع عدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليها . كما تمنع السفن العثمانية التي تقوم برحلات بحرية بين استانبول وموانئ الشام ومصر من عرقلة

٥٤١ . عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتري عليها : ص ٧٠٦-٧٠٧ .

نشاط السفن الفرنسية التي تعمل على هذه الخطوط الملاحية • وترتبط معاهدة ١٥٢٨ بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧ من حيث الهدف ، اذ كانت موادها مقصورة في الغالب على بلاد الشام ومصر بعامة ، والاسكندرية بخاصة •

ولاشك أن ابرام هذه المعاهدة كان مشجعا لملك فرنسا «فرنسوا الاول» والسلطان سليمان المشرع ، نظرا للعلاقات الودية الوثيقة بينهما ، على عقد معاهدة هامة أكثر شمولاً عرفت باسم « معاهدة صداقة وتجارة بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا » وقد عقدت في شهر فبراير سنة ١٥٣٥ وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائل رعاياها الذين يذهبون الى أقاليم الدولة العثمانية بعض الامتيازات في مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مناسبة مماثلة لها تقريبا • وسوف نعرض فيما يلي لنصوص هذه المعاهدة لابرار أهميتها في تنفيذ سياسة التنشيط التجاري التي تبنتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية وخاصة المطلة منها على البحر المتوسط لتعويض ما فقدته من نشاط تجاري نتيجة لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط منذ نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين •

ونقع معاهدة عام ١٥٣٥ بين الدولة العثمانية وفرنسا في ست عشرة مادة وقررت المادة الاولى منها السماح لرعايا الدولة العثمانية وفرنسا وتابعيهم بالتجول في جميع ممتلكات الدولتين بما فيها المدن والثغور والجزر ووسائل الاقاليم التي تدخل في حوزة كل من السلطان وملك فرنسا ، على أن يكون هذا التجول بهدف ممارسة العمليات التجارية والعودة الى بلادهم بكامل حريتهم دون أن يقع اعتداء عليهم أو على متاجرهم • بينما نصت المادة الثانية على أن العمليات التجارية تشمل البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع غير الممنوع الاتجار فيها ، ونقلها برا وبحرا بعد سداد الرسوم

المقررة ، بحيث يدفع الفرنسيون في أقاليم الدولة العثمانية ما يدفعه العثمانيون ، وأن يسدد العثمانيون في فرنسا ما يدفعه الفرنسيون ، دون أن يدفع أى من الطرفين ضرائب أو مكوسا جديدة أخرى •

وجاء في المادة الثالثة من هذه المعاهدة أنه « فضلا عن هذا ، كلما يعين ملك فرنسا في استانبول ^(٥٥) • أو بيرا أى غيرهما من مدن الدولة لعثمانية أحد رجال القانون ، كالقنصل المعين حاليا في الاسكندرية ، فيجب أن يقابل هذا القانونى والقنصل بطريقة لائقة ، وأن يحتفظ كل منهما بسلطته الخاصة بحيث يكون لكل منهما الحق في المحل في جميع القضايا والخلافات المدنية والجنائية التى تقع في دائرته ، طبقا لعقيدته وقانونه بين التجار ورعايا ملك فرنسا الآخرين ، بدون أن يمنعه من ذلك أى قاض أو صوباشى ^(٥٦) ، أو أى موظف آخر • ولكن اذا رفض أحد من رعايا ملك فرنسا اطاعة الاوامر الصادرة من القانونى أو القنصل فلهما في هذه الحالة فقط أن يستعينا بالصوباشى أو أحد ضباط السلطان في تنفيذ الاحكام • وعلى هؤلاء الصوباشية أو الضباط الآخرين أن يقدموا مساعدتهم الضرورية والتى تكفل اجبار الآخرين على تنفيذ احكامهم • ولكن ليس للقاضى أو أى ضباط تابعين لحكومة السلطان أو يحكموا في المدرعات التى تنشأ بين التجار ورعايا ملك فرنسا ، حتى لو طلب التجار المذكورون ذلك • واذا نظر القضاة بمجرد المصادفة في قضية فان حكمهم يكون لاغيا وباطلا •

أما المادة الرابعة من المعاهدة العثمانية الفرنسية عام ١٥٣٥ فقد منعت استدعاء أو الاعتداء على التجار ورعايا ملك فرنسا ، أو محاكمتهم

(٥٥) وردت في النصين الفرنسى والانجليزى « القسطنطينية » وهذا ما درجت عليه المصادر والمراجع الاوربية من الاصرار على تسمية استانبول بالقسطنطينية من قبيل التعصب للتسمية المسيحية البيزنطية من قبل •
(٥٦) الصوباشى لفظة تعنى نسابط في الجيش العثمانى ويكلف احيانا بالعمل « كمتسلم » على مدينة أو حاكم لتقسيم ادارى صغير •

في الدعاوى المدنية التي يقيمها عليهم العثمانيون أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ، مالم يكن بيد المدعين مستندات بخط المدعى عليهم ، أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي أو رجل القانون الفرنسي أو القنصل . وفي حالة وجود هذه المستندات والحجج لا يجوز للقضاة الشرعيين أو الصوباشية أو أي موظفين آخرين سماع الدعوى ومحاكمة هؤلاء الرعايا الفرنسيين الا في حضور ترجمان قنصل فرنسا . كما نصت المادة السادسة من تلك المعاهدة على أنه لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وخدمهم وجميع رعايا ملك فرنسا الآخرين فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القضاة الشرعيين والصنادقة البكوات والصوباشية أو غيرهم ، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي . ولا يمكن اعتبارهم مسلمين أو النظر اليهم على أنهم مسلمون الا اذا رغبوا في ذلك واعترفوا صراحة وبدون اكراه يقع عليهم . ولهم الحق في ممارسة شعائر دينهم .

أما المادة السابعة من المعاهدة العثمانية الفرنسية المعقودة عام ١٥٣٥ فإنها تنص على أنه اذا تعاقد شخص أو أكثر من شخص من رعايا ملك فرنسا مع أحد العثمانيين أو اذا استولى على سائح منه أو اقترض مبالغ ، تم غادر بلاد جلالة السلطان قبل أن يقوم بالوفاء بالتزاماته أو ديونه ، فلا يسأل رجل القانون الفرنسي أو الفرنسي أو القنصل أو أقارب المدين أو أي شخص فرنسي آخر عن ذلك مطلقا ، ولا يتعرض له أحد بالايذاء ولا يكون ملك فرنسا ملزما بشيء . ولكن يمكنه أن يستوفى طلب المدعى من المدعى عليه ، ومن أملاكه لو وجدت له أملاك في الاراضي الفرنسية . كما نصت المادة الثامنة على أنه لا يجوز القاء القبض على تجار فرنسا ووكلائهم وخدمهم وسائر الرعايا الفرنسيين ، واکراههم على العمل في خدمة السلطان العثماني أو أي شخص آخر في البر والبحر ، مالم يكن باختيارهم

وطوعهم • وكذلك لا يجوز استخدام سفنهم أو قواربهم أو ما يوجد بها من معدات أو مدافع أو ذخائر أو سلع إلا بموافقتهم ورضائهم •

وقررت المادة العاشرة أنه بمجرد تصديق السلطان وملك فرنسا على هذه المعاهدة فإن جميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو على سفنهما أو في أي مكان تابع لسلطتهما ، في حالة الرق ، سواء كان ذلك بشرائهم أو بوقوعهم في الأسر وقت الحرب أو باحتجازهم • يطلق سراحهم فوراً بمجرد طلب وتقرير من السفير أو القنصل أو أشخاص آخرين يعينون لهذا الغرض • وإذا كان أحد الأسرى قد تحول عن دينه فلا يكون تغيير عقيدته الدينية مانعاً من إطلاق سراحه • كما أوردت تلك المادة أنه « من الآن فصاعداً لا يجوز للسلطان ، ولا لملك فرنسا ، ولا بمادة الاساطيل البحرية ، ولا لقواد الجيش ، ولا لأي أشخاص آخرين تابعين لأحد العاهلين أو لمن يستأجرانهم لذلك ، سواء في البر أو في البحر ، أخذ أو شراء أو بيع أو حجز أسرى الحرب بصفة أرقاء • وإذا حاول أحد القراصنة أو غيره من رعايا العاهلين أسر أحد رعايا الطرف الآخر أو انتصاب أملاكه أو أمواله ، فيجب إحاطة حاكم الجهة عنما بذلك ، وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته بتهمة تعكير السلام بين الدولتين ، وليكون عقابه عبرة لغيره ، ورد ما يكون عنده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه • وإذا لم يضبط الجاني فوراً واستطاع الهرب دون محاكمة فيجب نفيه من بلاده مع جميع شركائه • وتقوم الحكومة التابع لها هؤلاء الجناة بمصادرة ممتلكاتهم ، ودفع التعويضات عن الأضرار التي أصابت المجنى عليه ، من ممتلكات الجناة وهذا لا يمنع من مجازاتهم إذا تم القبض عليهم فيما بعد • وللمجنى عليه أن يستعين على الحصول على التعويضات من ضامن هذا الصلح ، وهما السر عسكر عن السلطان ، وأكبر القضاة عن ملك فرنسا •

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه اذا وصلت الى أحد موانى أو سواحل الدولة العثمانية احدى السفن التابعة لرعايا ملك فرنسا سواء كان وصولها بطريق الصدفة أو غيرذلك فيجب تزويدها بما يلزمها من مواد تموينية وغيرها من الضروريات في مقابل دفع الثمن المناسب بدون الزامها بتفريغ شحناتها أو دفع رسوم ، ثم يباح لها السفر الى حيث تريد • واذا وصلت الى استانبول وأرادت السفر منها بعد حصولها على جواز الخروج من أمين الجمرك ، ودفع الرسوم المقررة ، وتفتيشها بمعرفة أمين الجمرك المشار اليه ، فلا يجوز زيارتها أو تفتيشها في أى مكان آخر ، الا عند الحصون القائمة عند مدخل بوغاز غاليبولى ، بدون أن تدفع شيئاً مطلقاً لرحيلها ، سواء عند هذا البوغاز أو في أى مكان آخر خروجها ، سوى ما سبق دفعه ، سواء كان الطلب باسم السلطان أو أحد ضباطه •

وأشارت المادة الثالثة عشرة أنه اذا تحطمت أو غرقت بطريق الصدفة أو غير ذلك احدى السفن التابعة لرعايا أحد العاهلين في البلاد التابعة لهما ولقضائهما ، فان جميع الافراد الناجين من هذا الخطر يظلون متمتعين بحريتهم ، ولا يحال بينهم وبين أخذ أو جمع ما يكون لهم من الامتعة وغيرها • أما اذا غرق جميع من بها فان البضائع التى يمكن انقاذها تسلم الى القنصل أو أخذ رجال القانون فى القنصلية أو من يمثلهما ، ليسلمها الى من تتعلق بورشتهم ، بدون أن يستولى القبود ان باشا أو الصنجق بك أو النصوباشى أو القاضى أو أى ضابط أو احد رعايا السلطان على شىء منها ، والاتوقع عليهم العقوبات • وعلى هؤلاء أن يقدموا التسهيلات والمساعدات لمن يعهد اليهم باستعادة البضائع •

كما نصت المادة الرابعة عشرة على أنه اذا هرب أحد العبيد التابعين

لاحد رعايا السلطان وادعى هذا العثماني أن عبده قد لاذ بأحد رعايا ملك فرنسا وخدم في سفينته أو في منزله ، فان هذا العثماني لا يستطيع أن يجبر الفرنسي على عمل شيء سوى السماح له بالبحث عن العبد في سفينته أو في داره • وإذا أسفر البحث عن العثور على العبد فان الفرنسي يعاقب بمعرفة قنصله ويرد العبد لسيده • وإذا لم يوجد العبد في سفينته أو دار الفرنسي ، فيجب ألا يتعرض الفرنسي للايذاء مطلقا ، وعلى أي نحو من الإنحاء بسبب هذا الحادث •

أما المادة الخامسة عشرة فقررت أن كل فرد من رعايا ملك فرنسا لم يكن قد أقام بأراضي الدولة العثمانية مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لا يلزم بدفع الإخراج أو أي ضريبة أيما كان اسمها ، ولا يلزم بحراسة الأراضي المجاورة أو مخازن السلطان ، ولا بالعمل في ترسانة ، أو أي عمل آخر بطريق الإكراه • وينمخ رعايا الدولة العثمانية امتيازات مقابلة في بلاد فرنسا • وتضمنت المعاهدة اقتراح ملك فرنسا بدعوة البابا وملك إنجلترا ، أخيه وحليفه الأبدى ، وملك اسكتلندا للانضمام لهذه المعاهدة •

وأخيرا قررت المادة السادسة عشرة من المعاهدة العثمانية الفرنسية المعقودة عام ١٥٣٥ أن يتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة بمعرفة العاهلين في خلال ستة أشهر من تاريخ التوقيع عليها ، مع الوعد من كليهما بالمحافظة على تنفيذها ، والتنبيه على جميع القضاة والضباط ورعاياهما بمراعاة جميع احكامها بكل دقة • وحتى لا يدعى أحد الجهل بها ، يجب نشر نسخ منها بعد التصديق عليها في استانبول والاسكندرية ومارسيلية

وناربون Narbonne ، وفي جميع المدن والموانئ المشهورة التابعة لكل من الطرفين (٥٧) .

وتجدر الإشارة الى أن هذه المعاهدة العثمانية الفرنسية التي عقدت في عام ١٥٣٥ بين السلطان سليمان المشرع والملك فرانسوا الاول قد جددت بعد ذلك عدة مرات وأضيفت اليها أحكام جديدة في أعوام ١٥٦٩ ، ١٥٨١ ، ١٥٩٧ ، ١٦٠٤ ، ١٧٣٩ . كما أصبحت هذه المعاهدة تجدد تلقائيا كلما ارتقى عرش الدولة العثمانية سلطان جديد . وقد أرسى هذا التقليد في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو عام ١٧٤٠ السلطان العثماني محمود الاول (١٧٣٠ — ١٧٥٤) اعترافا منه بفضل فرنسا حين تدخل في صيف عام ١٧٣٩ « الماركيزدي فيلنيف Marquis de Villeneuve » السفير الفرنسي في بلغراد لانتهاء حالة الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا . وكان من نتائج مساعيه الحميدة ابرام معاهدة بلغراد في اليوم الثامن عشر من سبتمبر عام ١٧٣٩ (٥٨)

وتجدر الإشارة كذلك الى أن تلك المعاهدة العثمانية الفرنسية التي عقدت عام ١٥٣٥ قد نصت في مادتها الخامسة عشرة على دعوة ملك انجلترا وغيره الى الانضمام اليها والاستفادة من أحكامها ، بشرط أن يقوم ملك انجلترا بابلاغ السلطان العثماني ، في خلال ثمانية شهور من تاريخ التوقيع على المعاهدة بصدور تصديق الحكومة الانجليزية عليها . ويطلب اعتماد هذا التصديق اذ اراد السلطان سليمان المشرع وفرنسوا الاول ، تحويلها من معاهدة ثنائية الى معاهدة جماعية ، حتى تتحقق أكبر فائدة منها في

Hurewitz, J. C.: Diplomacy in the Near and Middle East, vol.I. pp. 1-5 (٥٧)

(٥٨) عبد العزيز محمد الشناوي (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية

مفتري عنيدا ج ٢ ، ص ٧٠٨ — ٧١٤ .

تنشيط الحركة التجارية في البحر المتوسط . بعد أن أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء منذ مطلع القرن السادس عشر ، غير أن هذه الدغوة لم تجد استجابة من ملك إنجلترا ، وظلت السفن الانجليزية التي تتردد على الموانئ العثمانية تبحر في الموانئ والمياه العثمانية تحت الاعلام الفرنسية ، طبقا لاوامر الحكومة العثمانية . ثم ازداد عدد السفن الانجليزية التي تشق طريقها الى موانئ الدولة العثمانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وتطلعت إنجلترا الى منافسة البنادقة والفرنسيين في هذه المنطقة (٥٩) ، وبدا ذلك واضحا عندما تمكن أحد التجار الانجليز واسمه « أنطونى جنكنسن Anthony Jenkinson من مقابلة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٥٣ في حلب ، وهو يستعد للزحف على فارس آنذاك ، ونجح في الحصول على موافقة السلطان له على الاتجار داخل ممتلكات الدولة العثمانية على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين ، وعلى ألا يدفع أكثر من الرسوم المقررة (٦٠) . على أن هذا الحادث الاول من نوعه لم يفتح لانجلترا عهدا تجاريا مهما على الرغم من الامتيازات الواسعة التي منحها السلطان سليمان المشرع لذلك التاجر الانجليزي (٦١) .

غير أن النشاط التجاري الانجليزي سيزداد بعد ذلك بربع قرن تقريبا ، عندما استقبلت الحكومة العثمانية بعثة انجليزية في عام ١٥٧٨ ، واستطاعت هذه البعثة أن تحقق نجاحا كبيرا في وضع الحجر الاساسي

Hoskins, H. L. : British Routes to India, p. 2 - 4. (٥٩)

Hurewitz, J. C. : op. Cit., Vol. I. pp. 5 - 6. (٦٠)

(٦١) زكى صالح (دكتور) : مجمل تاريخ العراق الدوني في العصر العثماني

للتجارة الانجليزية في الدولة العثمانية بولاياتها المختلفة ومن بينها مصر بطبيعة الحال ، مما كان من شأنه تنشيط الحركة التجارية في البحر المتوسط التي كان قد أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ مطلع القرن السادس عشر * وكان من بين معالم هذا النجاح أن السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦) أرسل رسالة مؤرخة في الخامس عشر من مارس عام ١٥٧٩ الى الملكة اليزابيث الاولى ، وكان مما جاء فيها « ان البلاد العثمانية ستبقى دائما مفتوحة للتجار الانجليز ... ونحن (أي السلطان العثماني) سوف لا نتقاغس عن تقديم المساعدة والمعونة لاي فرد منهم (أي من الانجليز) يبتغى تقدير صداقتنا واحساننا ومساعدتنا ، بل سنعد ارضاءهم جزءا من واجبنا » (٦٢) * .

على أن هذه الرسالة لم تكن مقنعة في نظر ملكة إنجلترا ، لانها لم تشتمل على تحديد موضوعات تتصل بتيسير ممارسة الرعايا الانجليز نشاطهم التجاري ، وتطلعت الملكة الى عقد اتفاق يكون أوفى بالغرض تخصيصا وشمولا * ومهدت له بمنح التجار العثمانيين امتيازات داخل بلادها تكون مماثلة لما يحصل عليه التجار الانجليز من امتيازات في بلاد الدولة العثمانية * وما أن تلقى السلطان مراد الثالث الرسالة الملكية حتى أصدر في شهر يونيو سنة ١٥٨٠ « براءة » تضمن للتجار الانجليز امتيازات واسعة النطاق * وكان مما جاء فيها على لسان السلطان « وعلى هذافاننا نمنح جميع افراد شعبها ورعاياها حرية المجيء الى امبراطوريتنا بأمن وسلام ، مع كل ما لديهم من متاجر وسلع بحرا في سفن كبيرة وصغيرة ، وبرا في عربات ، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، ولهم أن يمارسوا

(٦٢) زكى صالح (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٤ .

عمليات البيع والشراء دون عائق ، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم
(الانجليزية) (٦٣) •

وكان من الطبيعي أن تلقى هذه المعاهدة معارضة عنيفة من جانب
السفير الفرنسي في استانبول حتى أنه سعى لدى السلطان لوقف تنفيذها •
ونجحت مساعيه ولكن الى أمد قصير • ففي العام التالي مباشرة صدر
العقد التأسيسي الاول لانشاء « شركة الليفانت The Levant Company

في الحادى عشر من شهر سبتمبر عام ١٥٨١ ، وهى شركة انجليزية مارست
اختصاصات سياسية وتجارية واسعة في شرقى البحر المتوسط (٦٤) فهى
التي كانت ترشح سفراء انجلترا في استانبول وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان
جميع قناصل انجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين في ممتلكات الدولة
العثمانية يعدون مستخدمين في الشركة ويتقاضون منها مرتباتهم • وظل
هذا التقليد ساريا اكثر من قرنين حتى سنة ١٨٠٣ • أما الاختصاصات
التجارية لهذه الشركة فقد حصلت من الملكة اليزابيث الاولى ملكة انجلترا
على حق احتكار المتاجرة في الحوض الشرقى للبحر المتوسط • وكان نشاطها
كثيفا في الاناضول وحلب والاسكندرونه والاسكندرية وغيرهما من أساكن الشام
ومصر والساحل الغربى لشبه جزيرة الاناضول • ولم يمتد نشاط الشركة بوضوح
الى العراق الذى كان اكثر تأثرا بنشاط « شركة الهند الشرقية الانجليزية

«The East India company» التى أنشأتها بريطانيا في ٣١ ديسمبر
سنة ١٦٠٠ (٦٥) • وفى سنة ١٥٨٣ عينت الحكومة الانجليزية « ولييم
هاريورن William Harbourn » سفيرا لها في استانبول ومنحته سلطات
متشعبة على جميع التجارة الانجليزية في ولايات الدولة العثمانية وخولته

Hurewitz, J. C.: op. Cit., Vol I., p. 7-9.

Epstein, M.: Early History of the Levant Company, p. 52.

Hoskins. H. L.: Op Cit., pp. 4. 5.

(٦٣)

(٦٤)

(٦٥)

اختصاصات واسعة في تعيين القناصل • وغدا « هاربورن » سفيرا الى جانب صفته كممثل لشركة الليفانت • واستغل هاتين الصفتين في حمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ معاهدة ١٥٨٠ وقدم مع أوراق اعتماده الهدايا للسلطان وكبار رجال الدولة ، وسرعان ما أثمرت جهوده • وعلى هذا تعتبر سنة ١٥٨٣ بداية التاريخ الفعلى والرسمى لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الانجليز في املاك الدولة العثمانية والتجار العثمانيين في انجلترا • وفى سنة ١٦٠٤ حصلت الحكومة الانجليزية على موافقة السلطان أحمد الاول على أن تبحر السفن الانجليزية داخل المياه والموانئ العثمانية تحت الاعلام الانجليزية ، بينما كانت السفن الاجنبية — باستثناء سفن البنادقة — مضطرة الى رفع العلم الفرنسى • وفى عام ١٦٤١ عقد الملك شارل الاول ملك انجلترا معاهدة مع السلطان ابراهيم الاول العثمانى كفلت لشركة الليفانت حرية التجارة فى جميع أنحاء الدولة العثمانية • ثم عقد سلطان محمد الرابع (١٦٤٨ — ١٦٨٧) معاهدة مع انجلترا فى شهر سبتمبر سنة ١٦٧٥ جددت فيها الامتيازات التجارية التى سبق منحها فى معاهدات سابقة وأضيفت اليها مواد جديدة • وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم « المعاهدة النهائية للامتيازات الامبراطورية العثمانية وانجلترا » *«Final Treaty of Capitulations between the Ottoman Empire and England»* وهى تقع فى خمس وسبعين مادة ، (٦٦) وتمثل هذه المعاهدة المرحلة الثانية المهمة فى تاريخ الامتيازات التجارية البريطانية فى الدولة العثمانية التى ضمنت للتاجر الانجليزى حرية التجارة داخل البلاد العثمانية ، والسماح له بمرور بضائعه عبرها ، والتمتع بما يكفى حماية نفسه وماله • وقد ضمنت الامتيازات اسما مثل ذلك للتاجر العثمانى

في البلاد الانجليزية • غير أن الجانب العثماني لم يستند في الواقع سوى بما يأخذه السلطان أو الباشوات من رسوم على البضائع الانجليزية تبلغ عادة ثلاثة في المائة من ثمن البضاعة •^(٦٧) ولم يحدث بعد عقد معاهدة عام ١٦٧٥ شيء يذكر حتى عام ١٨٠٩ حين نجحت إنجلترا في ائتمالة الدولة العثمانية اليها بعد فترة جفاء بينهما ، كما استطاعت إنجلترا في اليوم الخامس من شهر يناير سنة ١٨٠٩ أن تعقد مع الدولة العثمانية معاهدة الدردنيل المعروفة باسم «معاهدة السلام والتجارة والتحالف السري Treaty of Peace, Commerce and Seecret Alliance» وقد جاء في مادتها الرابعة أن جميع الامتيازات التي سبق تقريرها في معاهدة عام ١٦٧٥ والمعاهدات السابقة عليها تظل ملحوظة ومرعية كان لم يطرأ عليها تعطيل • وقد عقدت الدولة العثمانية تباعا معاهدات أخرى على شاكلتها مع عدد من الدول الاوربية الاخرى^(٦٨) .

واذا كانت إنجلترا قد حرصت على مشاركة البنادقة والجنوبيين والفرنسيين وغيرهم في التجارة التي تصل الى موانئ البحر المتوسط في القرن السادس عشر ، ونجحت في ذلك الى حد بعيد بعد تأسيسها لشركة الليفانت على وجه الخصوص عام ١٥٨١ ، فانه لم يكد هذا القرن يوشك على الانتهاء حتى أصبحت التجارة التي تصل الى موانئ ذلك البحر لا تقى بحاجة السوق الانجليزية من البضائع والمنتجات الشرقية^(٦٩) ولهذا اتجه البريطانيون الى كسر احتكار البرتغاليين والهولنديين للتجارة الشرقية في

(٦٧) زكى صالح (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٦٨) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية

مقتري عديها ج ٢ ، ص ٧١٥—٧١٩ .

Hoskins, H. L. : British Routes to India, pp. 1,3.

(٦٩)

بحار الشرق فتحوّلت السفن البريطانية كذلك الى طريق رأس الرجاء الصالح ونفذت الى البحار الشرقية، وثم اتصّلتها المباشر بالهند . وكان لانجلترا الدور الكبير في تنشيط طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن السادس عشر وفي أعقابه ، بالإضافة الى نشاطها التجاري في البحر المتوسط ، وزاد ثقل بريطانيا في المحيط الهندي بشكل ملحوظ بعد تأسيسها « لشركة الهند الشرقية الانجليزية The East India Company »

في ٣١ ديسمبر عام ١٦٠٠ (٧٠) . وعلى الرغم من ذلك فقد بدت رغبة انجلترا واضحة في استخدام الطريق التقليدي القديم عبر مصر والبحر المتوسط بعد أن تبينّت مميزاته في نهاية القرن الثامن عشر وخاصة عند تسيير الخط الملاحي البحري البخاري في مطلع القرن التاسع عشر (٧١) . وهكذا نشطت الدبلوماسية المملوكية ثم العثمانية من جهة ، والدبلوماسية الاوربية وخاصة لدى الدول ذات المصالح التجارية في البحر المتوسط من جهة أخرى كالبندقية وفرنسا وانجلترا، خلال القرن السادس عشر وفي أعقابه ، لعقد المعاهدات التجارية لتنشيط الحركة التجارية في البحر المتوسط — على النحو الذي أوضحناه — بعد أن أضعفها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين في مطلع القرن المذكور .

(ثالثاً) الاثر الاستراتيجي لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :
كان لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية

Fisher, H. A. L. : op., Cit., p. 602.

(٧٠)

Hoskins, H. L.: The Growth of British Interests in the Route to India, Journal of Indian History, II, p. 167.

(٧١)

القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين على أيدي البرتغاليين أبرز الاثر من الناحية الاستراتيجية على مصر وعالم البحر المتوسط بعد أن حرما من هذه التجارة • ورغم الجهود الدبلوماسية التي بذلت من الاطراف المعنية المختلفة على النحو الذي عالجناه فيما سبق ، فانها لم تحقق الاهداف المرجوة منها من أجل العودة الى الطريق التقليدي عبر مصر وعالم البحر المتوسط • وقد استوجب هذا على أهالي البلاد الاصليين من جهة أولى ، وعلى المماليك من جهة ثانية ، ثم على العثمانيين من جهة ثالثة ، ضرورة اللجوء الى استخدام القوة ضد النشاط البرتغالي والنشاط الاسباني المواكب له في العداء للمسلمين سواء في البحر المتوسط من جهة أو في البحار الشرقية من جهة أخرى • ولهذا فان النشاط الاستراتيجي سيبدو واضحا في هذين النطاقين وسوف يستمر من الناحية الزمنية طوال القرن السادس عشر الميلادي • وسوف يكون للاتراك العثمانيين الفضل في تشكيل تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الاسلامي في مصر وعالم البحر المتوسط من جهة ، وعالم البحر الاحمر من جهة أخرى طوال القرن السادس عشر ، حتى أقل نجم البرتغاليين في البحار الشرقية في نهاية القرن المذكور • وقد جاءت هذه التغطية الاستراتيجية العثمانية للمنطقة المذكورة في وقت كانت تتعرض فيه لفراغ سياسي نتيجة لانقسام الصف المملوكي من جهة أولى ، وفشل المماليك في صد الغزو البرتغالي للبحار الشرقية من جهة ثانية ، هذا فضلا عن انهيار الاوضاع الاقتصادية من جهة ثالثة • ويعد هذا الدور اكبر مكرمة للعثمانيين في جوهر علاقاتهم بأشقائهم المسلمين في عالي البحرين المتوسط والاحمر في القرن السادس عشر •

الاثـر الاستراتيجى فى البحر المتوسط :

ففيما يتعلق بالاثـر الاستراتيجى فى البحر المتوسط فاننا نجد أن المغرب المغرب العربى قد تعرض فى أثناء القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين للهجمات الاسبانية المستمرة على سواحله والتي كانت تواكب النشاط البرتغالى الذى حول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح آنذاك . اذ كانت خطة أسبانيا بعد أن تخلصت من آخر دولة اسلامية فيها وهى دولة بنى الاحمر فى غرناطة فى سنة ١٤٩٢ ، تقوم على غزو بلاد المغرب العربى ، هادفة بذلك الى تعقب المسلمين الذين هاجروا الى الموانى المغربية ، نظرا للدور الفعال الذى قاموا به فى تنشيط حركة الجهاد فى غربى البحر المتوسط وتسليم الغارات المستمرة على سواحل أسبانيا ، محاولين اثارة بقايا المسلمين هناك . وقد بدأت أسبانيا منذ عام (١٥١١ هـ - ١٥٠٥ م) بانزال حملاتها على سواحل المغرب الاوسط ، وبخاصة ميناء « المرسى الكبير » فى غرب الجزائر ، ثم أخذ نطاق العمليات الاسبانية يتسع منذ عام ١٥٠٨ حين تولى قيادة الاساطيل الاسبانية « بسدور نافارا Pedro Navarra » الذى تمكن من الاستيلاء على «حجر باديس» (٧٢) . ووهران وبجاية (٧٣) عام (١٥١٥ هـ - ١٥٠٩ م) ، كما تمكن من تدمير ميناء طرابلس فى السنة التالية . وتحت هذا الضغط الاسباني اضطرت

(٧٢) حجر باديس او صخرة باديس وتقع فى اقصى غرب الساحل الجزائرى المطل على البحر المتوسط .

(٧٣) بجاية : مدينة ساحلية جزائرية تطل على البحر المتوسط وتقع فى شرق الجزائر العاصمة وتبعد عنها بحوالى ٢٥٠ كيلو متر ، وكانت مركزا ثقافيا هاما فى العصور الوسطى .

دلس (٧٤) والجزائر الى دفع جزية لاسبانيا لان الزيانيين (٧٥) اثبتوا عجزهم عن حماية هذه الموانى نتيجة للتفكك السياسى الذى اصاب دولتهم، وللثورات الداخلية التى نشبت ضدهم كرد فعل على كثرة الضرائب التى فرضوها فى تلك الفترة على الاهالى بحجة مواجهة الغزو الخارجى ، مما اثر تأثيرا سيئا على الوضع الداخلى ، واضطرت السلطات الزيانية ذاتها الى عقد صلح مع اسبانيا فى سنة ١٥١٢م ، اعترفوا فيه باستيلاء اسبانيا على عدة موانى فى غرب الجزائر (٧٦) .

على ان حركة الجهاد البحرى للمغاربة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط اشتهت ساعدها من جديد فى العقد الثانى من القرن السادس عشر ولمعت قيادات جديدة من بين رؤساء البحر ، اصبح لها فى تلك الفترة تأثيرها الواضح فى بلاد المغرب العربى من امثال بابا عروج واخيه خير الدين بارباروسا ، وكانا من البحارة العثمانيين الذين شاركوا فى عمليات الجهاد البحرى ضد المحاولات الاسبانية العدوانية ، وكونوا قوة اسلامية جديدة كانت تمثل الخيط الاول فى علاقات العثمانيين بالمغرب العربى، تلك العلاقات التى كانت تهدف الى انقاذ مسلمى الاندلس من اضطهاد الكاثوليك المتعصبين ، وحماية سواحل المغرب العربى من الغزو الاسبانى . وقد تعددت خيوط علاقات العثمانيين بالمغرب العربى مع تحول هذه القوة الى باشوية سياسية

(٧٤) ميناء دلس الجزائرى يقع على بعد ٨٠ كيلو متر شرقى ميناء الجزائر .
(٧٥) الزيانيون : نسبة الى الدولة الزيانية التى ظهرت فى القرن الثالث عشر بعد ضعف دولة الموحدين وكانت عاصمتها تلمسان ، وكانت فى صراع دائم مع الدولة الحفصية فى تونس والدولة المرينية فى المغرب الاقصى ، ودخلت تحت سيطرة العثمانيين فى عام ١٥١٧م .
(٧٦) شوقى عطالله الجمل (دكتور) : المغرب العربى الكبير فى اندلس الحديث : ص ٢٦-٣٥ .

في الجزائر ناهضت المعازل الاسبانية على السواحل الجزائرية والتونسية والليبية ووصلت بحكمها في اتجاه المغرب الى تلمسان ، ووجدته ، ودبذو ، وبابس (٧٧) .

وقد تمكن عروج بالتعاون مع اخيه خير الدين ، من تكوين امارة مستقلة في جزيرة جربة (٧٨) ، واتخذها قاعدة بحرية لنشاطهما منذ عام ١٥٠٤م ، وجمعا فيها الكثير من المتطوعين . وبدأ عروج منذ سنة ١٥١٠ في ممارسة نشاطه البحري من هذه القاعدة . وذاعت شهرته في الجهاد ضد غارات الاسبان ، حتى ان رجال القبائل في الجزائر طلبوا منه تقديم العون لهم لاسترداد ميناء بجاية من يد الاسبان ، فاجابهم الى طلبهم ونجح في استرداد هذا الميناء ، ثم نقل قاعدة نشاطه من جزيرة جربة الى ميناء جيجل في الجزائر ، وتمكن من صد هجوم اسباني على ميناء الجزائر وهدد الحصون التي اقامها الاسبان امام الساحل وشدّد هجماته عليها ، وتمكن من بسط نفوذه على اقاليم المغرب الاوسط ، الاقليم تلو الاخر . وأصبحت السلطات القديمة بالضعف أمام سلطان عروج ، ونجح في سنة ١٥١٧ في مد نفوذه على « تلمسان » عاصمة بني زيان . وقام عروج بعد أن نجح في القضاء على حكم بني زيان ، بوضع حاميات في ميديا ومليانة (٧٩) ، وامتد نفوذه الى حدود المغرب الاقصى . ولكن آخر حكام بني زيان ، استنجد بأسبانيا لاسترداد عرشه الضائع ووجد الاسبان في هذا الاستنجد فرصة لهم

(٧٧) ابراهيم شحاته حسن (دكتور) اطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠-١٩٤٧م) ، ص ١١٩ .

(٧٨) تقع جزيرة جربة في مواجهة ساحل تونس من ناحية الجنوب الشرقي المطل على البحر المتوسط وهي من اشهر المواقع السياحية التونسية حاليا لموقعها الجغرافي الممتاز ، بينما تقع مدينة جيجل على ساحل الجزائر شرقي مدينة الجزائر بحوالي ٣٥٠ كيلومتر .

(٧٩) تقع ميديا جنوب مدينة الجزائر بحوالي ٨٨ كيلو متر ، بينما تقع مليانة غرب مدينة الجزائر بحوالي ١٣٠ كيلو متر .

للتدخل في شئون الجزائر ، ووصلت حملة أسبانية الى سواحل الجزائر وتمكنت من التوغل في أرض الجزائر ومحاصرة تلمسان وأحدثت فوضى في داخلية البلاد أدت الى نشوب ثورة ضد حكم بابا عروج ، بل أن الامر انتهى بقتله سنة ١٥١٨ (٨٠) . وقد أثارت أعمال اسبانيا العدوانية ضد البلدان المغربية أبناء المغرب المقيمين بالاسكندرية آنذاك ، فقاموا بعمل عدائي ضد الاسبان المقيمين فيها ، وأحرقوا لهم خانا (٨١) .

ولهذا لم يكن امام خير الدين بار باروستيا ، الذي خلف أخاه عروج ، من سبيل للسيطرة على الموقف ، سوى الاتصال بالدولة العثمانية ، التي غدت القوة الاسلامية الكبرى المسيطرة على مصر والشام والحجاز في سنة ١٥١٧ ، فطلب خير الدين من السلطان سليم الاول مديّد العون له في جهاده ضد الخطر الاسباني (٨٢) . وقد أرسل له السلطان سليم في سنة ١٥١٨ ، ألفين من الجنود الانكشارية ، كما سمح له بتجنيد أبناء الاناضول . ويعتبر هذا الاتصال بين خير الدين والدولة العثمانية بداية انضمام المغرب الاوسط الى الدولة العثمانية . وقد أزعج هذا التقارب ، القيادات المغربية القديمة ، التي كانت قائمة في المناطق المغربية الاخرى ، خشية أن يقضي على ماتبقى لها من نفوذ وسلطان ، مما ضاعف من جهود خير الدين ، فكان عليه أن يواجه الخطر الاسباني من ناحية ، وأن يتصدى للقوى الداخلية المعارضة من ناحية أخرى . خاصة وأن هذه القوى حاولت أن توحد جهودها مع جهود الاسبان للقضاء على قوة خير الدين ، الذي نجح في مجابهة هذه الاخطار

(٨٠) جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ص ٢٢-٢٣ .

(٨١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة في مصر في العصر العثماني ، ص ١٨ .

(٨٢) صلاح العقاد (دكتور) : المغرب العربي ، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة . ص ٩-١٥ .

ووحده اقطار شمال افريقية ، وأصبحت دولته بمثابة خط الدفاع الامامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ^(٨٣) . وقد منحته السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦م) لقب «بيلر باي افريقية» Beylerbey ثم من بعد لقب «قبودان باشا Kapudan Pasa

وقد ازداد نفوذ الدولة العثمانية قوة في بلاد المغرب ، بعد أن تمكن مراد أغا في (١٣ شعبان ٩٥٨هـ — ١٦ اغسطس ١٥٥١ م) من تخليص طرابلس الغرب من يد الاسبان ، وفرسان القديس يوحنا ، وأصبحت طرابلس قاعدة من قواعد الجهاد البحري في شمال افريقيا ^(٨٤) .

تلك هي الصورة السياسية التي كان يمر بها المغرب الاسلامي والتي رجحت فيها كفة أسبانيا بعد احرازها النصر على المسلمين في المغرب في معركة « لبيانفو » في سنة ١٥٧١م . حيث عجزوا بعد هذه المعركة عن مد نفوذهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، كما عجزوا عن تحرير الجيوب التي احتلتها أسبانيا والبرتغال على سواحل اقليم المغرب الاقصى ^(٨٥) .

بل ان وهران في المغرب الاوسط بقيت تحت الحكم الاسباني حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر . وقد حاولت أسبانيا بعد معركة « لبيانفو » بعاميين احتلال تونس واعادة حلفائها الحفصيين . غير أن المسلمين بقيادة « العلي علي » تمكنوا في العام التالي من اخراج الاسبان وحلفائهم الحفصيين وبصورة نهائية من تونس في سنة ١٥٧٤ . وقد ظلت حالة عدم الاستقرار هذه تسود المغرب الاسلامي طوال القرن السادس عشر ، وحتى الاقاليم التي خضعت للحكم العثماني عانت كثيرا من النظم الادارية التي

(٨٣) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ص ١١٣ .

(٨٤) صلاح العقاد (دكتور) : المغرب العربي ، ص ١٩—٢٥ .

(٨٥) جلال يحيى (دكتور) المرجع السابق ، ص ٢٣—٢٦ .

خضعت لها مما أحدث إرتباكاً في أحوالها (٨٦) .

ولاشك، أن هذه الظروف التي كانت تمر بها بلدان المغرب الاسلامي أثرت على وضعية اقتصاد البلاد مما جعل الكثيرين من فئة التجار يتجهون الى بلدان المشرق العربي ويستقرون فيها لممارسة نشاطهم . وكذلك فعل الحرفيون وبعض القبائل المغربية فأصبحت هذه الظروف بمثابة عامل طرد من المغرب الى المشرق ، قابلة من الجانب الآخر عامل تمثل في أقطار المشرق وبخاصة مصر التي وفرت لهؤلاء المهاجرين والوافدين اليها من المغاربة الحرية التامة لممارسة نشاطاتهم المختلفة سواء أكانت تجارية أم مهنية، فاتخذوها موطناً لهم ، واستقروا في مدنها وقراها (٨٧) . وكان ذلك يحدث قبل نهاية العصر المملوكي في سنة ١٥١٧ ، وطوال العصر العثماني وخاصة في القرن السادس عشر ، ذلك لان الوجود العثماني البحري في سواحل المغرب العربي المطلة على البحر المتوسط قد سبق الوجود العثماني في المشرق العربي ومصر ، (٨٨) مما جعل المغاربة يشعرون بوحدة بلادهم مع بلاد المشرق العربي في ظل الحكم العثماني .

وبالاطلاع على أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية والذي يضم وثائق محكمة الاسكندرية الشرعية العائدة الى منتصف القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي نتبين وجود العديد من الوثائق التي تشير الى دور المغاربة في تنشيط الحركة التجارية والحرفية ، فضلاً عن الحياة

(٨٦) عبد الجليل التميمي (دكتور) الخلفية الدينية للصراع الاسباني — العثماني عنى الايالات المغربية في القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد (١٠-١١) ، ص ٥-٤٤ ، تونس يناير ١٩٧٨ .

(٨٧) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة في مصر في العصر العثماني ص ١٩ .

(٨٨) ابراهيم شحاتة حسن (دكتور) : اطوار العلاقات المغربية العثمانية،

الاجتماعية والثقافية في الموانى والمدن الداخلية في مصر والشام وخاصة في مدينة الاسكندرية (٨٩) كما تشير هذه الوثائق كذلك الى وجود نشاط تجارى نسبى كانت تقوم به الجاليات الاوربية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط في الموانى والمدن الداخلية في مصر والشام وخاصة في مدينة الاسكندرية آنذاك (٩٠) . وقد خفف هذا النشاط التجارى الى حد كبير من حدة العزلة التى أحدثها تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر-المتوسط أثناء القرن السادس عشر . مما يؤكد أن الحركة التجارية لم تتوقف تماما ، بل انها نشطت نسبيا استنادا الى الطرق البرية الاخرى التى نشطت لتعوض المنطقة عما افتقدته ، والتى كانت رحلة الحج السنوية تشكل محورا لحركتها الدائبة .

— الاثر الاستراتيجى فى البحار الشرقية :

كان لتحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ وصول البرتغاليين الى الهند فى نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين ، أبلغ الاثر من الناحية الاستراتيجية على البحار الشرقية بوجه عام ، وعلى البحر الاحمر بوجه

(٨٩) أنظر المجموعة الوثائقية الاولى الملحقه بالبحث وعددها ثلاث عشرة وثيقة ، أصولها محفوظة بأرشفيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية بدفتر سجل مبيعات رقم (١) وتعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ - ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ - ١٥٥١م) ، ونم يسبق نشرها .

(٩٠) أنظر المجموعة الوثائقية الثانية الملحقه بالبحث وعددها سبع وثائق ، أصولها محفوظة بأرشفيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية بدفتر سجل مبيعات رقم (١) وتعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ - ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ - ١٥٥١م) ، ولم يسبق نشرها .

خاص • وكانت دولة المماليك تشكل أكبر قوة اسلامية متواجدة في هذا البحر بحكم سيطرتها على مضر والحجاز في نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة • كما كانت من أكثر الدول تأثراً بأية متغيرات تحدث في هذا البحر ، كتحويل التجارة العالمية عنه الى طريق رأس الرجاء الصالح ، مما أدى الى ضياع العوائد والرسوم الجمركية الضخمة التي كانت تجنيها الخزانة المملوكية في الموانئ التابعة لها والمطللة على البحر المذكور • ولهذا كان على الدولة المملوكية — للاعتبارات الامنية والاقتصادية — أن تنصدي للبرتغاليين في البحار الشرقية عامة ، والبحر الاحمر بوجه خاص ، للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة ، خاصة بعد أن عجز الطاهريون في سواحل اليمن — التي شكلت خط المواجهة الاول مع البرتغاليين في أقصى جنوب الجزيرة العربية والبحر الاحمر — من جهة ، وكذلك السلطنات الاسلامية على الساحل الغربي للهند من جهة أخرى ، عن مواجهة الخطر البرتغالي المتزايد في المحيط الهندي •

اذ استنجد الامراء الهنود على الساحل الغربي للهند أمثال سلطان « كجرات » والسامري حاكم « قاليقوط » بالسلطان الغوري ليساعدهم في مواجهة الخطر البرتغالي بعد أن عجزوا عن مواجهته ، باعتبار دولته أقوى الممالك الاسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة في الهند ، فضلاً عن امتلاكها للأسلحة النارية الحديثة المماثلة للأسلحة البرتغالية (٩١) •

أما بالنسبة للطاهريين الذين كانوا يحكمون الجزء الساحلي من اليمن والذين كانوا يشكلون مع الإمامة الزيدية المتمركزة في الهضبة اليمنية ، الدعامتين اللتين قام عليهما النظام السياسي في اليمن في نهاية القرن الخامس عشر ،

(٩١) قطب الدين النهروالي : البرق اليمني في الفتح العثماني ، خدوطة

فقد واجهوا البرتغاليين الذين أضعفوا الأماكن الاقتصادية لتهامه وجنوبي اليمن بعد تحويلهم للتجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح • وقد أكدوا بذلك الموقف الايجابي للشعب اليمني في تصديهم للبرتغاليين بقدر ما كانت تسمح به امكاناتهم الذاتية في ذلك الحين • اذ استطاع السلطان عامر بن داود الطاهري — رغم اضطراب أحوال سلطنته نتيجة للجهود التي بذلها من أجل توحيد اليمن تحت حكمه ، الى جانب ضعف إيراداته المالية نتيجة للحصار البرتغالي الذي حول طريق التجارة عن بلاده وأفقده الاموال الطائلة التي كانت تصل اليه من جمارك عدن قبل وصول البرتغاليين الى الهند ^(٩٢) • أن يجهز حملة بحرية لمحاربة البرتغاليين في مياه الهند في سنة ١٥٠٧م ، غير أن هذه الحملة كانت ضعيفة تعبر عن حقيقة ظروف السلطان عامر وامكاناته ، كما تعبر أيضا عن عدم ادراكه لقوة الغازي الجديد الذي جاء يغزو الشرق كله بأسلحة حديثة فتاكة • اذ كان قوام الحملة أربع عشرة سفينة من سفن النقل العادية ، تحمل ستماية مقاتل يمني بالإضافة الى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين • وأبحرت هذه الحملة من ميناء عدن في ١١ مارس سنة ١٥٠٧ ، ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين على نحو ما يرجحه ، نظرا لان المصادر اليمنية صمتت حينذاك عن ذكر أنباء تلك الحملة ، التي كانت أضعف كثيرا عن القيام بمهمتها الصعبة ^(٩٣) ولهذا فان السلطان عيبر عجز عن ارسال حملة أخرى الى الهند فضلا عن حماية سواحله أمام هجمات البرتغاليين بين آونة وأخرى •

(٩٢) ابر الدبيع ، عبد الرحمن بن علي محمد الشيباني الزبيدي الشافعي : الفضل المزيدي على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٣١ ب ، ٤٢ •

(٩٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٢٨ — ١٦٣٥م : ص ٥٨ — ٥٩ •

وفي ذلك الوقت كانت دولة المماليك في مصر والشام والحجاز من أولى الدول التي تأثرت اقتصاديا بتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح اذ أدى هذا التحول الى ضياع العوائد والرسوم الضخمة التي كانت تجنيها الخزانة المملوكية من موانئ مصر والشام والحجاز . وقد أبدى المماليك اهتماما بالغا بمحاربة البرتغاليين ووقف تحول التجارة اليهم . غير أنهم كانوا أضعف من مواجهة قوة دولة البرتغال البحرية الناشئة وأعجز عن القضاء عليها . ولهذا فقد استعان المماليك بالعثمانيين المسلمين الذين شاركوهم غيرتهم الدينية ، ^(٩٤) وبالبندقية التي حرمت مثلهم من التجارة الشرقية التي كانت تقوم بتوزيعها في أسواق أوربا ، وذلك للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة . وكان بعض أمراء الهند أمثال سلطان كجرات والسامري حاكم قاليقوط ^(٩٥) قد استجدوا بالسلطان الغوري ليساعدهم في مواجهة الخطر البرتغالي باعتبار دولته أقوى المماليك الإسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة في الهند ، فضلا عن امتلاكها للأسلحة النارية الحديثة المماثلة للأسلحة البرتغالية ^(٩٦) كما أرسلت البندقية سفيرها « فرانسوا تالدي » الى القاهرة للتفاوض مع السلطان الغوري سرا في الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسع البرتغاليين التجاري في مياه الهند وذلك بناء على تعليمات مجلس العشرة الصادرة في البندقية في ٢٤ مايو

(٩٤) الموزعي . شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد : « كتاب الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » مخطوطة ، ص ٦ .
(٩٥) الملباري ، زين الدين المعبري : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين . ص ٤٠ .

(٩٦) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، مخطوطة ص ٤ (١) .

سنة ١٥٠٤^(٩٧) وقد أدى ذلك أيضا الى تشجيع السلطان الغورى على ارسال حملة بحرية الى الهند لتعقب البرتغاليين ومحاولة طردهم من البحار الشرقية واعادة التجارة الى طريقها التقليدى القديم عبر مصر والشام والبحر المتوسط . وقد حدث ذلك عندما وجه السلطان الغورى حملة بحرية يقودها الامير حسين الكردى نائب جدة تحركت من القاهرة فى ٤ نوفمبر سنة ١٥٠٥ عبر قناة أوصلتها الى السويس حيث أبحرت منها متجهة الى المحيط الهندى . وقد مرت الحملة بسواكن حيث استولت عليها وأقامت بها بعض الاستحكامات ضمن برنامجها لتحسين سواحل البحر الاحمر قبل أن تتجه الى الهند . ثم أبحرت الحملة تجاه الموانى اليمنية فمرت بجيزان ثم بقرمان ، واتجهت منها الى مخا تم وصلت الى عدن حيث مكثت هناك لتتروود بالمؤن اللازمة لها للقيام بمهمتها .

وقام الامير حسين الكردى بابلاغ والى عدن من قبل الطاهريين أن هدف الحملة هو التوجه الى الهند لمحاربة البرتغاليين . كما طلب منه أن يمد الحملة بالطعام والمؤن اللازمة ، فسمح له والى بأن يأخذ من عدن كل ما يحتاج اليه^(٩٨) . وهذا يؤكد مرة ثانية أن اليمنيين وقفوا موقفا ايجابيا فى مواجهة البرتغاليين على نحو ما بدا فى تعاونهم الكامل مع القوات المملوكية المتجهة لمحاربتهم .

(٩٧) نعيم زكى فهمى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٣٨١—٨٣٧ . وقد نشر فى ملاحق كتابه مجموعة التعليمات التى أصدرها مجلس العشرة فى البندقيه للسفير الهندى « فرانسوا تالدى » المبعوث الى السلطان الغورى بالقاهرة فى ٢٤ مايو سنة ١٥٠٤ ، ونصوص بعض النظم التجارية الخاصة بتجارة البندقيه فى الاسكندرية ، حتى عقد المعاهدة بين السلطان سليم الاول العثمانى وطائفة البنادقة فى نهر الاسكندرية بعد فتح العثمانيين لمصر بتاريخ ٢٢ من المحرم ٩٢٣هـ — ٢١ من فبراير سنة ١٥١٧ ، ص ٤٢٩ — ٤٣٥ .

(٩٨) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

وكانت الانتصارات الحربية والتجارية المتواصلة للبرتغاليين حينذاك قد دفعتهم الى اتخاذ خطوة اكثر ايجابية وهى اقامة حكومة استعمارية برتغالية فى الهند فقد عين ملكهم فى سنة ١٥٠٥ « فرانسيسخودا الميدا Francisco d'Almeida » حاكما عاما للبرتغاليين فى الهند كنائب للملك البرتغال (٩٩) . وعمل « دالميدا » طوال أربع سنوات حتى سنة ١٥٠٩ على اقامة دعائم الحكم الاستعماري البرتغالي فى ساحل ملبار ، وتوجيه الحملات الحربية الى الجهات المختلفة لفتح مجالات التجارة أمام البرتغاليين فى البحار الشرقية (١٠٠) .

وعندما وصلت الحملة المملوكية الى مياه الهند ، تمكنت من احراز نصر جزئى أمام الاسطول البرتغالي بعد وقت قليل من وصوله الى «ديو» التى كانت أهم موانى سلطنة « كجرات » . كما انتصر الاسطول المملوكى على اسطول برتغالى مكون من ثمانى سفن (١٠١) . وذلك فى خريف عام ١٥٠٨ م . وكان سلطان كجرات يتعاون حينذاك مع المماليك . غير أن البرتغاليين سارعوا بقيادة « دا الميدا » نائب ملك البرتغال فى الهند وهاجموا السفن المملوكية ، وأحرزوا نصرا حاسما على المماليك فى موقعة «ديو» (١٠٢) فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٥٠٩ م . (١٣) وقد تمكن البرتغاليون عقب هذا الانتصار من التسلط على البحار الشرقية لمدة قرن من الزمان على وجه التقريب ، رغم الجهود التى بذلها أهالى البلاد الاصليين من جهة ، والمماليك والعثمانيون من جهة أخرى لطردهم من هذه البحار .

Stephens, H. M. Portugal, p. 195.

(٩٩)

Kammerer, A.: Op. Cit., Tome I. 155.

(١٠٠)

(١٠١) سعاد ماهر (دكتورة) : البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية،

ص ١٣٢ .

(١٠٢) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .

(١٠٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دولة البحار ج ٢ ، ص ٢٦ .

وتجدر الإشارة الى السياسة التي اتبعها البرتغاليون لبسط نفوذهم في البحار الشرقية من جهة ، واحتكار التجارة الشرقية من جهة أخرى . فقد كان « دا الميدا » يتبع سياسة الاكتفاء بسيطرة البرتغاليين على البحار دون التوسع في الاستيلاء على المواقع البرية التي يمكن أن تكلفهم مالا يطيقونه ، مما جعله يتجه الى تقوية الاسطول البرتغالي (١٠٤) . لاحكام سيطرتهم على البحار . وعندما عين « ألفونسو البوكيرك Albuquerque » نائبا لملك البرتغال في الهند بدلا من « دا الميدا » عمل على احتلال المراكز البحرية الهامة واقامة الحصون القوية في جميع جهات المحيط الهندي لاحكام سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة ، وتدعيم مركزهم في تلك المناطق النائية عن البرتغال ، حتى بأمنوا آية ضربات من قبل الحكام الوطنيين ويضعوا حدا لها (١٠٥) .

وقد تمكن « البوكيرك » من السيطرة على البوابات البحرية الثلاث الموصلة للمحيط الهندي وهي مضائق هرمز ، وباب المندب ، وملقا الواقع عند الطرف الجنوبي لشبة جزيرة الملايو (١٠٦) . وكان يحرص حينذاك على أن يثبت للهنود عدم وجود أية قوة يمكنهم أن ينتظروا مجيئها الى الهند لانقاذهم . كما كان البرتغاليون قد وجهوا أسطولا مكونا من أربعين سفينة بقيادة « البوكيرك » وزميله « ترستودي كانها Tresto de Canha » لبسط نفوذهم على الساحل الشرقي لافريقيا في سنة ١٥٠٦ . وقد استولى هذا الاسطول على لامو وبراوا ولم تأت سنة ١٥٠٩ الا وكانت جميع المراكز الاسلامية على هذا الساحل من « سوفالا » جنوبا الى « سراوا » شمالا

Kammerer, A.: Op Cit., p. 156.

(١٠٤)

Wilson, A. Op. Cit., p. 112.

(١٠٥)

Prestage, E. : The Portuguese Pioneers, pp. 53, 60.

(١٠٦)

قد خضعت البرتغاليين • (١٠٧) كما تمكن « البوكيرك » في سنة ١٥٠٧ من السيطرة على جزيرة « سقطرى » المواجهة للساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وتتوسط المسافة تقريبا بين مدخلى البحر الاحمر والخليج العربى (١٠٨) • وكان موقع الجزيرة نموذجيا بالنسبة لتحقيق أهداف البرتغاليين مما جعل « البوكيرك » يقرر ابناء حامية فيها مع تشييد حصن برتغالى ، فضلا عن اقامة دير لطائفة الفرنسيسكان لنشر الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي (١٠٩) • غير أن البرتغاليين غادروا الجزيرة في سنة ١٥١١ نظرا لعدم توفر مقومات الاستقرار بها ، مما أدى الى ضعف استفادتهم منها حربيا وتجاريا •

وفي عهد « البوكيرك » تم أول اتصال مباشر بين الحبشة والبرتغال في سنة ١٥٠٩ • وقد أجبرت الحبشة حينذاك على التعاون مع البرتغاليين لاعلان الحرب العامة على المسلمين وعلى الدولة المملوكية التى كانت تتزعمهم بوجه خاص • وقد سعى البرتغاليون الى عقد تحالف مع الحبشة المسيحية لتطويق العالم الاسلامى من الجنوب وتوفير مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الاحمر لمهاجمة الحجاز ومصر واليمن فى ذلك الحين (١١٠) وكان يهدف « البوكيرك » الى السيطرة على عدن التى كانت تعتبر أكبر مستودع تجارى فى جنوبى البحر الاحمر ، وذلك لكى يتمكن من الاستفادة من موقعها الممتاز المتحكم فى مضيق باب المندب لاجلاق البحر الاحمر ، وتأمين طريق البرتغال الجديد حول رأس الرجاء الصالح • ولهذا قام

Serjeant, R. B. : Op. Cit., p. 14.

(١٠٧)

(١٠٨) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى ،

ص ١٤ •

Serjeant, R. B. : Op. Cit., p. 43.

(١٠٩)

Alvarez, F. : Op. Cit., pp. 390, 392.

(١١٠)

« البوكيرك » بمهاجمة عدن في ٢٤ مارس سنة ١٥١٣ ثم نقل معاركه البحرية بعد ذلك الى داخل البحر الاحمر .

وكان يحكم عدن من قبل الطاهريين الامير مرجان الذي اضطرب لظهور البرتغاليين وسارع بطلب النجدة من السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان الدولة الطاهرية بجنوبي اليمن . ونظرا لانشغال هذا السلطان بحروبه مع الامام الزيدى للسيطرة على صنعاء ، فقد تأخر في ارسال النجدة لحاكم عدن . وقد اعتمد أهالي عدن على أنفسهم وعلى حصانة مدينتهم الطبيعية في صد العدوان البرتغالي واستبسلوا في دفاعهم ، حتى اضطرب البرتغاليون الى الانسحاب الى سفنهم بعد أن تركوا خلفهم بعض قتلاهم . وقد انتقم البرتغاليون لانفسهم بالقيام بأعمال تخريبية فأحرقوا حوالي أربعين سفينة كانت راسية بميناء عدن بعد أن استولوا على ماتحملة من بضائع (١١١) . بل انهم اتجهوا بعد ذلك الى مضيق باب المندب حيث نفذوا الى داخل البحر الاحمر وقد مروا بالموانى اليمنية المطلة على البحر الاحمر حتى وصلوا الى جزيرة قمران الواقعة أمام ميناء الصليف شمالي الحديدة . وقد استولوا على الجزيرة في مطلع شهر أبريل سنة ١٥١٣ ، وقاموا بأعمال تخريبية مثل ردم الآبار حتى لا تنتفع بالجزيرة أية قوة معادية ، خاصة وأنها كانت محطة بحرية هامة بين موانى اليمن والحجاز (١١٢) .

وقد اتجه « البوكيرك » بعد ذلك نحو تنفيذ مشروعة الحربى الكبير بمهاجمة جدة . غير أن الرياح بددت أحلامه واضطرت له للعودة الى قمران حيث بقى فيها مدة شهرين واصل أثناءها أعماله التخريبية في موانى البحر الاحمر . فضرب ميناء زيلع بالمدافع وأحرق السفن الراسية هناك . ثم

(١١) ابن الديبع : الفضل المزيدي على بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد ،

مخطوطة ص ٥٠ (ب) ، ٥١ (أ) .

(١١٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧٢ - ٧٤ .

عاد ثانية الى عدن وواصل ضربها بالمدافع مدة خمسة عشر يوما حتى غادرها الى الهند في اليوم الرابع من أغسطس سنة ١٥١٣ وبذلك فشل «البوكيرك» في الوصول الى جدة أو السيطرة على عدن ، وإن كان قد نجح في أن يرسم لخلفائه خطة غزو هذا البحر الى أقصى شماله عن طريق المعلومات التي جمعها عن طبيعة البحر الاحمر ومراكزه المختفية وحركة التجارة فيه . هذا فضلا عن معرفة البرتغاليين بإمكانات القوى المسيطرة على هذا البحر حتى يمكنهم التغلب عليها أو استقطاب بعضها الى جانبهم ، كما هو الحال مع امبراطورية الحبشة في ذلك الحين (١١٣) .

على أن أهم هذه القوى التي يخشاها البرتغاليون كانت تتمثل في الدولة المملوكية التي زاد اهتمامها بمواجهة هذا الخطر بعد توغل البرتغاليين في داخل البحر الاحمر . وكان السلطان الغوري يوجه كل عناية لاعداد أسطول بحري ثان في ميناء السويس لخوض معركة المصير التي سيقرب على نجاحها حل أزمتة الاقتصادية ، وبالتالي مواجهة الاضطرابات الداخلية . هذا فضلا عن اعداد الاساطيل القوية للدفاع عن سواحله الشمالية المطلّة على البحر المتوسط والتي كانت تهددها آنذاك هجمات « فرسان القديس يوحنا » المقيمين في جزيرة رودس من جهة ، الى جانب تأمر البنادقة الذين حالفوه بالامس لمواجهة الخطر البرتغالي الذي حرمهم من التجارة الشرقية التي كانوا يقومون بتوزيعها في أوروبا من جهة أخرى . وكان عجز الغوري عن توجيه ضربة قاضية للبرتغاليين قد شجع انبعاثه على التحالف مع عدوه الشاه اسماعيل الصفوي في فارس لاهياء طريق التجارة الشرقية عبر أراضي فارس والعراق الى موانئ الشام المطلّة على البحر المتوسط بعد أن

يهاجم الصفوى المماليك من جهة العراق ويهاجم البنادقة من جهة البحر المتوسط (١١٤) .

وعلى أن موقف الامراء الهنود المسلمين ازاء السلطان الغورى كان على النقيض من الموقف الذى اتخذه البنادقة ازاءه ، اذ ظل هؤلاء الامراء يشجعونه على ارسال حملة بحرية الى الهند للقضاء على النفوذ البرتغالى الذى اشتدت وطأته هناك بعد انتصار البرتغاليين فى موقعة « ديو » فى سنة ١٥٠٩ . وقد ارسل الغورى مندوبا من ثبته اليهم ليعدهم بارسال حملة أخرى ويطلب اليهم الاستمرار فى التعاون معه حتى يتحقق النصر (١١٥) وقد تم أخيرا اعداد حملة بحرية جديدة فى شهر أغسطس سنة ١٥١٥ التى عرفت حينذاك بحملة الهند (١١٦) ، وعين الرئيس سلمان العثمانى قائدا للأسطول على أن يتولى قيادة الحملة الامير حسين الكردى نائب جده بمجرد وصولها الى هناك (١١٧) .

غير أنه لم يقدر لهذه الحملة أن تصل الى هدفها النهائى فى الهند وأجبرتها الظروف التى واجهتها أمام السواحل اليمينية بالاضافة الى ظروف الاخرى على التوقف عند عدن . وكان توغل البرتغاليين الى داخل البحر الاحمر فى سنة ١٥١٣ قد فرض على المماليك أن يتخذوا سياسة دفاعية قوية

(١١٤) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ ، ١٩٦ .

(١١٥) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

(١١٦) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٦٧ .

(١١٧) أسند الغورى قيادة هذا الاسطول فيما بين السويس وجده الى الرئيس سلمان الرومى تقديرا للمعونة العثمانية التى وصلت اليه ، ويقول وجيه الدين السيبانى فى كتابه « قرّة العيون فى تاريخ اليمن الميمون » أن سلمان الرومى هو أمير صاحب الروم ابن عثمان المسمى سليم وكان قد بعثه فى عسكر كثير الى صاحب مصر قونصوه الغورى اعانة له على قتال الافرنج الذين ظهروا فى البحر فى طريق الهند ص ١٥٥ .

في البحر الاحمر قبل التوجه الى الهند . فقد اهتم المماليك بتحسين ميناء
بذه تحت اشراف حسين الكردي ، كما قام هذا الامير باحتلال زيلع ، هذا
بالاضافة الى أن المماليك كان لهم نوع من السيادة في ميناء سسواكن
بالسودان . وبذلك لم يبق أمام المماليك الا اقامة القواعد البحرية على
السواحل اليمنية وخاصة في عدن وذلك لتحقيق غرضين ، الاول اغلاق
البحر الاحمر أمام الغزو البرتغالي ، أما الثاني فهو اتخاذ هذا الميناء الهام
قاعدة لنشاط المماليك البحري في المحيط الهندي .

وتجدر الاشارة هنا الى أن السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان
الدولة الطاهرية في جنوب اليمن قد استنجد بالمماليك بعد هجوم «البوكيرك»
على عدن في سنة ١٥١٣ ، كما وافق على أن يفيم السلطان الغوري قواعد
بحرية على السواحل اليمنية لمواجهة أي عدوان حديد من قبل البرتغاليين
ولتعقبهم في المحيط الهندي وعندما فشل هجوم البرتغاليين على عدن دون
أية مساعدات خارجية ، وتأخر وصول الاسطول المملوكي الى اليمن ،
تراجع السلطان عامر عن الوفاء بوعده باقامة قواعد بحرية مملوكية على
سواحله بعد أن رُكن أن الخطر قد زال ، وحرصاً منه على استقلال بلاده
وتفاديا لاحتمال تعرض شعبه لسيطرة قوى دخيله حتى ولو كانت تربطه
بهم رابطة العقيدة والنضال المشترك .

غير أن هذا التراجع من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب الذي حدث
بناء على دوافع وطنية ، لم يقابل من الامير حسين الكردي — الذي كان
يرى بوضوح استفحال خطر البرتغاليين — الا بمهاجمة السواحل اليمنية
بالقوة (١١٨) . ومن هنا توالى الاحداث سريعة ومتوالية ، فقد نزل المماليك

Ross, E. D.: The Portuguese in India and Arabia between 1507 & 1517;
Journal of the Royal Asiatic Society, London, Part IV, October 1921, p.560.
Serjeant, R. E.: Op. Cit., p. 170. (١١٨)

الى جزيرة قمران ، وشرعوا في بناء سور حول الجزيرة لتحصينها وذلك طبقا لمخططهم العام في البحر الاحمر باقامة قواعد بحرية في جنوبه لاغلاقه في وجه البحرية البرتغالية * وهنا أمر السلطان عامر ولاته في الموانئ اليمنية بمنع وصول الطعام الى الممالك في جزيرة قمران لزعزعتهم من هناك ، فقام الممالك بضرب ميناء « الحديد » بالدافع عندما أمر حاكمه « بحجز ثلاث سفن » كانت قادمة من زيلع من مواصلة رحلتها الى قمران ونقل شحنتها من الاطعمة الى الساحل * وقد نزل الممالك الى الساحل بعد قرار حاكم الحديد وأخذوا ما يلزمهم من طعام ، كما حملوا معهم بعض الاخشاب والادوات اللازمة لبناء سور حول قمران لتحصينها ضد أي هجوم (١١٩) *

على أن بعض العناصر اليمنية المنافسة لسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري قامت بالاتصال بالممالك وشجعتهم على النزول الى الساحل اليمني والقضاء على حكم هذا السلطان * وكان الامام شرف الدين الذي الذي تولى الامامة الزيدية في سنة ١٥٠٦ على رأس هذه العناصر * كما كان أشرف « جيزان » على اتصال سابق بالممالك ليستعينوا بهم في التخلص من السلطان عامر لتحقيق أطماعهم في بلاد اليمن * هذا بالاضافة الى بعض الساخطين من أهالي تهامة وحنوب اليمن الذين أرادوا أن يضعوا حدا لحكم هذا السلطان حتى يتخلصوا من دفع الخراج اليه (١٢٠) *

وقد استفاد الممالك من كل هذه العناصر ونجحوا في الاستيلاء على بعض المدن التهامية ومن بينها زبيد في ٢١ يونيو سنة ١٥١٦ وعينوا الامير

(١١٩) ابن الديبع : الفضل المزيدي على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٥٣ ب *

(١١٠) ابن الديبع : قرعة العيون في أخبار اليمن الميمون مخطوطة ، ص ١٥٢ (١) — ١٥٣ (١) *

« برسبای » حاکما علیها وقائدا للمالیک فی منطقة تھامہ • ثم أبھر اسطولهم بعد ذلك بقيادة « حسین الكردي » حیث توجه الی زیلح واستولى علیها • وأخیرا اتّحه الی عدن فوصل الیها فی ١٢ اغسطس سنة ١٥١٦ حیث تمكن الممالیک من الدخول الی المیناء وانزال بعض جنودهم ومعداتهم الی الساحل • وقد استبسلت عدن فی الدفاع عن نفسها معتمدة علی حصانتها الطبیعیة واحاطة الذمال بها من کل جانب حتی تمكنت من رد الفوات المملوکیة عنها • غیر أن الممالیک عاودوا الكرة من جدید عندما انضم الیهم سلمان الرومی الذی کان یطارد بعض السفن الیمنیة المتجهة الی الهند ولكن هجومه بآء بالفشل • وفی ذلك الوقت وصلت نجدة طاهریة الی عدن مما اضطر الممالیک الی مغادرتها فی ١٩ اغسطس سنة ١٥١٦ دون أن یحققوا أهدافهم (١٢١) • وبذلك ظلت عدن فی أیدی الطاهریین حتی استولى علیها الاتراك العثمانيون فی سنة ١٥٣٨ •

ونظرا لفشل الممالیک فی السیطرة علی عدن فی سنة ١٥١٦ فانهم قرروا تأجیل ذهابهم الی الهند حتی یضمنوا حماية البحر الاحمر وتأمين خط رجعتهم • كما قرروا أيضا أن یتخذوا سواحل تھامہ الیمنیة خط دفاع أول عن البحر الاحمر ، علی أن تكون جدة خط الدفاع الثانی • ولهذا اتجه حسین الكردي وسلمان الرومی الی جدة لتركیز الدفاع بها بدلا من عدن حتی یتحینوا الفرصة للهجوم علیها من جدید غیر أن سقوط الدولة المملوکیة فی ید السلطان سلیم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠) الذی دخل مصر فی سنة ١٥١٧ أدى الی مسارعة أشراف مكة بالدخول فی طاعة العثمانيين ، كما قتلوا حسین الكردي غرقا أمام میناء جدة بعد أن أوهموه باستدعاء السلطان

(١٢١) ابن الدبیع : الفضل المزید علی بغیة المستفید فی اخبار مدینة زبید ، ص ٥٤ ب •

سليم له ؛ (١٢٢) وذلك انتقاماً منه لأعماله القاسية أثناء ولايته لجدة • على أن حسين الكردي يرجع له الفضل في اقامة التحصينات التي صدت الهجوم البرتغالي الكبير على مكة في سنة ١٥١٧ باعتراف البرتغاليين أنفسهم • كما قام سلمان الرومي بعد أن صد هذا الهجوم بتعقب البرتغاليين أثناء تقهقرهم من البحر الاحمر واستولى على احدى سفنهم وأسر بحارتها عندما اتجهت الى ميناء اللحية اليمنى للحصول على المؤن اللازمة (١٢٣) • ولاشك أن خطة المماليك واستراتيجيتهم في البحر الاحمر التي كانت تركز على تدعيم سيطرتهم في جهات هذا البحر ، واتخاذ عدن قاعدة لهم في جنوبه ، هي نفس الخطة والاستراتيجية التي اتبعها العثمانيون فيما بعد قبل أن يرسلوا حملتهم الكبيرة الى الهند في سنة ١٥٣٨ (١٢٤) • وتؤكد الخطتان المملوكية والعثمانية أهمية عدن البارزة وموقعها الاستراتيجي الهام كقاعدة للدفاع عن منطقة البحر الاحمر بأكملها ضد أي خطر تتعرض له المنطقة وخاصة من ناحية الجنوب •

على أن موقف المماليك الموجودين داخل اليمن والذين استقروا في زبيد تحت قيادة الامير « برسباي » فقد كان من الطبيعي أن ينشأ صدام بينهم وبين الطاهريين بزعامة السلطان عامر بن عبد الوهاب • وقد ظل السلطان عامر لايعترف بنفوذ المماليك في تهامة حتى قدر له أن يقتل وهو يقاتلهم على مقربة من صنعاء في اليوم الخامس عشر من مايو سنة ١٥١٧ واستولى المماليك على صنعاء (١٢٥) • وهكذا انتهى حكم آخر سلاطين

(١٢٢) قطب الدين النهروالي : الاعلام بأعلام بلد الله الحرام ، ص ١٢٨ •

(١٢٣) Serjeant, R. E. : Op. Cit., p. 170.

(١٢٤) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٨٩ •

(١٢٥) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوطة ،

ص ١٦ (١) •

آل طاهر الذى تمكن من توحيد معظم أجزاء اليمن حتى امتد حكمه من صعده وجيزان فى الشمال الى عدن وحضرموت فى الجنوب • وقد انقلب ميزان القوى فى اليمن بعد ذلك ليصبح فى أيدي الاثمّة الزيديين الذين عاصروا — فيما بعد — وصول الاتراك العثمانيين الى اليمن بعد أن ورثوا الحكم المملوكى فى مصر والشام والحجاز بكل مشكلاته ، وفى مقدمة هذه المشكلات مواجهة المنافسة البرتغالية فى البحار الشرقية فى ذلك الحين والحيولة دون سيطرة البرتغاليين على منطقة البحر الاحمر ومحاولة اعادة تدفق التجارة العالمية عبر طريقها التقليدى القديم • وتجدر الاشارة الى أن المماليك بعد سيطرتهم على صنعاء اصطدموا بالامام الزيدى شرف الدين الذى رفض التوجه الى صنعاء لمقابلة قائدهم ، كما رفض عقد أى اتفاق معهم • وكان اصطدام الامام — حليف الامس — بالمماليك أمرا متوقعا ، اذ أنه لم يطلب منهم امداده ببعض الجند والسلاح الا لتحقيق اغراضه الخاصة ومصالحه فى اليمن ، وليس لكى يستأثروا بالتسلط على البلاد لانفسهم ، خاصة بعد أن سيطروا على صنعاء ، الامر الذى تعارض تماما مع تطلعاته وآماله • وقد تقدم المماليك لمحاصرة الامام شرف الدين فى « ثلاء » بعد أن فشلت محاولاتهم للاتفاق معه • وقد ظلوا يحاصرون مدينة « ثلاء » حتى وصلهم نبأ سقوط دولتهم المملوكية على ايدي العثمانيين • وهنا رفع المماليك حصارهم عن « ثلاء » وعادوا الى صنعاء فى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٥١٧ ، حيث أعلن قائدهم الامير « اسكندر » خضوع المماليك فى اليمن للسيادة العثمانية (١٢٦) • كما فضل هذا الامير ترك صنعاء والعودة الى زبيد لإقربها من الساحل فوصل اليها فى ١٩ يولييه سنة ١٥١٧ ، بعد أن

(١٢٦) عيسى بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوطة ، ج ١ ، ص ٦٣ (١) •

واجهت الحملة في طريقها اعتداءات كثيرة من قبل القبائل اليمنية (١٢٧) .
وهذا يوضح مدى الضعف الذي حل بالماليك في اليمن بعد أن هزمت
دولتهم على يد العثمانيين .

أما بالنسبة للبرتغاليين فقد ازداد خطرهم بعد وفاة « البوكيرك »
في شهر ديسمبر سنة ١٥١٥ ، وعين « لوبوسوريز » نائبا لملك البرتغال في
الهند . (١٢٨) وقد تحددت خطة البرتغاليين في القضاء على القوة المملوكية
في البحر الاحمر واغلاقه في وجه السفن العربية ، كما أنهم تحالفوا مع
الحبشة لاعلان الحرب المشتركة على القوى الاسلامية في ذلك الحين . وقد
ركز البرتغاليون هجومهم على جدة التي أصبحت قاعدة الماليك للدفاع
عن البحر الاحمر بعد فشلهم في الاستيلاء على عدن في سنة ١٥١٦ . ولهذا
فان « لوبو سوريز » لم يهاجم عدن عند وصوله اليها على رأس حملة
برتغالية ، بل انه طلب من واليها أن يمدّه بالمؤن اللازمة للحملة وبيعض
المرشدين البحريين لتوصيلها الى جدة وذلك في سنة ١٥١٧ . وأمام هذه
القوة البرتغالية اضطر الامير مرجان حاكم عدن أن يلبي مطالب البرتغاليين
حتى لا يحتلوا عدن . وهذا ما دفعه الى عدم اظهار عداوته للبرتغاليين حتى
يتقوى شرهم ، ولم يكن هذا الموقف تخاذلا من قبله بدليل أنه قام اثناء وجود
الحملة في داخل البحر الاحمر بعمل كافة الاستعدادات الممكنة للدفاع عن
عدن حتى لا يفاجأ بهجوم البرتغاليين عليها وهم في طريق عودتهم الى
الهند . كما أنه جدد استعداداته للمرة الثانية عندما علم بوجود حملة
برتغالية جديدة على مقربة من عدن في سنة ١٥٢٠ . على أن الحملة البرتغالية

(١٢٧) ابن الديبع : الفضل المزيّد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد،
مخطوطة ص ٥٥ ب .

Wilson, A. : Op. Cit., p. 121.

(١٢٨)

الاولى فشلت أمام جده بفضل التحصينات التى أقامها المماليك هناك، ونتيجة للجهود التى بذلها سلمان الرومى الذى طارد السفن البرتغالية بعد وصولها إلى جزيرة قمران وتتبعها فى جنوبى البحر الاحمر حتى وصلت الى عدن ثم سارعت بمغادرتها الى مياه الهند .

وقد واصل البرتغاليون تنفيذ خططهم فى البحر الاحمر على نحو مابدا فى الحملة البرتغالية التى وصلت الى مدخل هذا البحر فى سنة ١٥٢٠م والتى ركزت اهتمامها على مهاجمة جدة على وجه الخصوص ، هذا فضلا عن انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية . وقد عاد البرتغاليون الى الاهتمام بعدن بعد أن فشلوا فى الوصول الى جدة نظرا لمعاكسة الرياح لهم من جهة ، ووجود حشود كثيرة فيها من جهة أخرى ، مما جعلهم يخشون مهاجمتها . ولهذا راوا من الافضل لهم أن يسيطروا على عدن حتى لا تقع فى قبضة العثمانيين . وكان الامير مرجان حاكم عدن قد أراد أن يقوى جانبه حينذاك بالاتصال بالأتراك العثمانيين . عقام باعداد خطاب طويل على لسان السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهرى الذى كان قد قتل اثناء صراعه مع المماليك ، موقع عليه من قبل بعض الفقهاء والتجار فى عدن يؤكدون ما جاء به ، ووجهه الى السلطان العثمانى سليم الأول ، واشتكى فيه من أعمال حسين الكردي وسلمان الرومى أمام عدن ، ومن تصرفات المماليك فى اليمن ، كما أوضح الاسباب التى دفعته لمهادنة البرتغاليين حتى لا يعرض عدن للخطر (١٢٩) .

على أن البرتغاليين قد واصلوا ارسال حملاتهم البحرية سنويا الى البحر الاحمر لمهاجمة ميناء جدة دون جدوى ، كما هاجموا ميناء «الشحر»

(١٢٩) بامخرمة : أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن على : قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ، مخطوطة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ١٢٠٥—١٢٠٦ .

اليمنى ونهبوه في سنة ١٥٢٣ أثناء توجههم الى ميناء مصوع لتنسيق التعاون بينهم وبين الاحباش ، (١٣٠) بل ان البرتغاليين وجهوا اسطولا بقيادة « دى سلفيرا » الى عدن من جديد وأجبروا حاكمها — الذى خلف الامير مرجان بعد وفاته في سنة ١٥٢١ — على عقد معاهدة معهم نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين ، وعلى أن تفتح ميناءها للسفن البرتغالية (١٣١) . غير أن نائب ملك البرتغال في الهند وهو القائد البحرى الشهير « فاسكوداجاما » رفض ابرام هذه المعاهدة لانه كان يؤمن بضرورة بسط سيطرة البرتغاليين الكاملة على المراكز التجارية الهامة . وقد أدى ذلك الى قيام حملة برتغالية في سنة ١٥٢٥ بضرب عدن بالمدافع وهى في طريقها الى مصوع ، ولكنها لم تحقق أى هدف للبرتغاليين في ذلك الحين . وهذا ما جعل البرتغاليين يفضلون أخيرا عقد معاهدة جديدة مع حاكم عدن وقام « دى سلفيرا » بفرض هذه المعاهدة على حاكم عدن بالقوة في شهر فبراير سنة ١٥٣٠ . ونصت المعاهدة على اعتراف عدن بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الجزية السنوية اليهم ، وذلك نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة لسكان عدن ولكن بشرط عدم توجههم الى جدة (١٣٢) ، ولكي يضمن البرتغاليون تنفيذ هذه المعاهدة تركوا في ميناء عدن احدى سفنهم وقوة قوامها أربعين برتغاليا ليشرفوا على الميناء وعلى إيراداته المالية (١٣٣) .

وتجدر الإشارة الى أن موقف حاكم عدن ازاء البرتغاليين في ذلك الحين — الذى بدا في اضطراره الى قبول عقد معاهدة معهم — قد أثار غضب اليمنيين مما جعله يتعرض لهجوم الفقهاء والعلماء عليه . غير أن

Marston, T. E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, P. 23. (١٣٠)

Kammerer, A. : Op. Cit., Tome II., pp. 283, 286. (١٣١)

Kammerer, A. : Ibid . Tome II.. PP. 287, 288. (١٣٢)

(١٣٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١١١ .

حجة هذا الحاكم تركزت دائما في حرصه على عدم تعرض عدن للاحتلال الكامل من قبل البرتغاليين المتفوقين حربيًا من جهة ، وفي خشيته من هجوم المماليك عليها من داخل اليمن أو من ناحية البحر من جهة أخرى • وقد اضطره هذا الموقف الى مهادنة البرتغاليين وعقد المعاهدة المذكورة معهم دون أن يقصد من وراء ذلك أن يتحول ليصبح عميلا لهم • ومما يؤكد اخلاص هذا الحاكم لبلاده أنه قام بعد مضي وقت قليل على رحيل الحملة البرتغالية عن عدن بالقبض على البرتغاليين الموجودين فيها حينذاك وأودعهم السجن في مؤخرة المدينة بالقرب من الجبال المحيطة بها • بل انه سخرهم بعد ذلك في صناعة الأسلحة والآلات الحربية التي يتقنون صنعها • وفي نفس الوقت فقد قام هذا الحاكم اليمني بالكتابة الى السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ — ١٥٦٦) يبلغه بالدخول في طاعته (١٣٠) • وكان يهدف من وراء هذا التصرف أن يقوى من جانبه بالأسعانة بهذه القوة الإسلامية المتمثلة في السلطنة العثمانية ليتمكن من مواجهة البرتغاليين اذا حاولوا مهاجمة عدن من جديد • وبذلك ظلت عدن تحافظ على استقلالها وحريتها على الرغم من فقدانها لمقوماتها الاقتصادية نتيجة للحصار البحري البرتغالي المفروض عليها من جهة ، وافتقارها لمساندة الجبهة الداخلية المنهارة بعد سقوط الدولة الطاهرية من جهة أخرى • ولهذا اضطرت عدن الى الاعتماد على ذاتها حتى تمدنت من المقاومة حينًا ، ومن مهادنة البرتغاليين حينًا آخر ثم تقربت الى العثمانيين بعد ذلك حتى سقطت في أيديهم في سنة ١٥٣٨ • وقد اتخذها العثمانيون قاعدة للوثوب على البحرية البرتغالية في الهند من جهة ، ثم للدفاع عن الحدود الجنوبية للسلطنة العثمانية من جهة أخرى عندما عجزوا عن تحقيق غايتهم الاولى •

على أن العثمانيين بعد أن ورثوا حكم السلطنة المملوكية في سنة ١٥١٧ فإنهم بدأوا يحملون لواء الحرب بأنفسهم ضد البرتغاليين والاسبان في البحر المتوسط على النحو الذي أشرنا اليه وفي البحار الشرقية وخاصة في البحر الاحمر . إذ كان على العثمانيين أن يعالجوا أهم المشاكل السياسية والاقتصادية التي واجهوها في مصر بعد أن حول البرتغاليون طريق التجارة العالمية عنها وعن عالم البحر المتوسط الى طريق رأس الرجاء الصالح (١٣٥) ، مما جعل الحرب مع البرتغاليين ضرورة حتمية . وقد راد من خطورة البرتغاليين في نظر العثمانيين تحالفهم مع التسعة الصفويين في فارس الذين كانوا على عدااء مذهبي مع الدولة العثمانية . كما حرص العثمانيون على الدفاع عن الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز ضد الخطر البرتغالي لينالوا بذلك شرف حماية الحرمين الشريفين حتى تكون لهم الزعامة في العالم الاسلامي . وقد اتصفت خطوات العثمانيين لتدعيم نفوذهم في البحر الاحمر في بداية الامر بالضعف في الفترة التي أعقبت سيطرتهم على مصر وحتى سيطرتهم على اليمن في سنة ١٥٣٨ . ويرجع السبب في ذلك الى انشغال العثمانيين في جبهات متعددة آنذاك مما جعل سيادتهم في هذا البحر سيادة رغم محاولاتهم المتعددة لفرض نفوذهم الفعلي هناك . وقد ظل المماليك الموجودين في اليمن حينذاك يمثلون السيادة الاسمية للعثمانيين في جنوب البحر الاحمر وخاصة في بلاد اليمن ، غير أنهم انصرفوا الى أعمال السلب والنهب ، كما أنهم حاولوا الاحتفاظ بكيانهم الخاص هناك رغم اعترافهم بالسيادة للعثمانيين ولكن نجاح بعض العمليات الحربية للبرتغاليين في جنوب البحر الاحمر حثم على العثمانيين ضرورة اتخاذ خطوة ايجابية لحماية حدود دولتهم من الجنوب ودرء خطر الغزو البرتغالي الصليبي عن

(١٣٥) محمد محمود السروجي (دكتور) : سياسة مصر العربية في النصف

الثاني من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤-١٨٦٦ ، ص ٩٣ .
اسمية رغم محاولاتهم المتعددة لفرض نفوذهم الفعلي هناك . وقد ظل المماليك

الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز ، ومحاولة توجيه ضربة للبرتغاليين
لإعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم عبر مصر وعالم البحر
المتوسط .

وقد رأى العثمانيون أن سيطرتهم الفعلية على اليمن ستحقق أهدافهم
في حربهم ضد البرتغاليين آنذاك . فهي بحكم موقعها الممتاز في جنوب
غرب الجزيرة العربية^(١٣٦) وبحكم اشرافها على مضيق باب المندب ، تعتبر
منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من ناحية الجنوب ، بحيث
يمكنهم بالسيطرة عليها أن يضمنوا سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة في
الحجاز ، وأن يتحكموا في البحرين الاحمر والعربي ، فضلا عن امتلاك
موطىء صالح للوثوب على البحرية البرتغالية في البحار الشرقية ، وتطويق
أعدائهم الشيعة الصفويين في فارس من الجنوب ، وتحقيق أحلامهم بمسد
سيطرتهم شرقا الى أقاصى العالم الاسلامى^(١٣٧) ، وإعادة التجارة العالمية
الى طريقها التقليدى القديم عبر مصر وعالم البحر المتوسط من جديد .

وبمكنا أن نتتبع خطوات العثمانيين في البحر الاحمر وجهودهم
لتدعيم نفوذهم الفعلى في بلاد اليمن بعد أن ضعفت الحامية المملوكية هناك
— رغم اعترافها بسيادة العثمانيين — عن تحقيق أهدافهم في الفترة الممتدة
بين عامى ١٥١٧ و ١٥٣٨^(١٣٨) . كما لم تؤد الحملة البحرية الاولى التى أرسلها
العثمانيون الى جنوب البحر الاحمر والى الهند في سنة ١٥٢٦ وتكونت
من عشرين سفينة الا الى زيادة المنازعات بين الامراء المماليك داخل اليمن

(١٣٦) الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب
ص ٥١ . الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم
والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ص ٨ .
(١٣٨) ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود : الفتوحات المرادية
في الجهات اليمنية ، مخطوطة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٧ ب .

— وان كانت قد نجحت نسبيا في القضاء على بعض العناصر القوية هناك مما مهد السبيل أمام العثمانيين فيما بعد للسيطرة على البلاد (١٣٩) غير أن هذه الحملة لم تتمكن من القيام بعمل يذكر في الهند ضد البرتغاليين الذين ازداد خطرهم بتحالفهم مع الصفويين في فارس ، وقد تأكد العثمانيون من هذا الخطر بعد دخول أمراء البصرة والقطيف والبحرين في طاعة الدولة العثمانية في أعقاب فتح بغداد في سنة ١٥٣٤ بحيث أصبح العثمانيون يواجهون البرتغاليين مباشرة في البحر الاحمر والخليج العربي على السواء ولهذا قرر العثمانيون توجيه حملة ثانية الى الهند لتحقيق غاياتهم وأهمها طرد البرتغاليين من البحار الشرقية وبناء على أوامر السلطان سليمان المشرع تم تجهيز حملة قوية أبحرت من ميناء السويس ٢٧ يونيو سنة ١٥٣٨ بقيادة سليمان باشا الخادم الذي كان واحدا من مماليك السلطان سليم الاول المقربين اليه (١٤٠) . وقد اتخذ قائد الحملة كافة الخطوات اللازمة لتنفيذ خطة العثمانيين العامة في البحر الاحمر والتي تستهدف سيطرتهم عليه قبل ارسال الاسطول العثماني الى الهند . وقد اتصل سليمان الخادم بالأمراء انحاكمين في جهات البحر الاحمر وخاصة أمراء الساحل اليمني مثل أميري عدن والشحر طالبا اليهم الدخول في طاعة العثمانيين . وقد قبل سلطان الشحر بدر الطويرق اعلان ولائه للعثمانيين ، بينما رواجهم عامر بن داود الطاهري حاكم عدن ولم يرد على رسالة سليمان باشا اليه ، وكان ذلك من أسباب قتله غدرا عقب وصول الحملة الى عدن .

وقد وصلت الحملة العثمانية الى عدن في اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٥٣٨ (١٤١) وما أن شاهدها عامر بن داود حتى اضطر الى أن يغير من

(١٣٩) ابن داعر : المصدر السابق ، مخطوطة ، ج ١ ، ص ١٨٨ (١) .

Hammer, J.: Op. Cit., Tome 5., P. 302.

(١٤٠)

Playfair, R. L. : op. Cit., P. 101.

(١٤١)

سياسته ازاء قوة العثمانيين الهائلة • ولهذا فقد أحسن استقبال الحملة وفتح أمامها أبواب المدينة حتى يحصلوا على ما يشاؤون من طعام ومؤن بناء على مطلب سليمان باشا الخادم • غير أن الأخير كان قد كلف جنوده سرا بقيادة الصوباشي فرحات بالاستيلاء على عدن عقب دخولها مباشرة • وقام الجنود العثمانيون بتنفيذ الخطة على الفور ، بل انهم قاموا أيضا بسلب المدينة ونهبها حتى استدعاهم بعض القادة حرصا منهم على عدم اشاعة الفوضى في المدينة • وفي نفس الوقت الذي دخل فيه الجنود العثمانيون مدينة عدن كان عامر بن داود قد توجه الى سفينة القيادة ومعه ستة من كبار أتباعه لمقابلة سليمان باشا الخادم بناء على دعوته • وقد أحسن الأخير استقبالهم في بداية الامر وخلع عليهم (١٤٢) • حتى وصلا . نبأ احتلال جنوده لمدينة عدن ، فتتكر لعامر ابن داود ورفاقه (١٤٣) وأمر بسنقهم على صاري سفينته وتركهم معلقين به لمدة ثلاثة ايام (١٤٤) •

وهكذا تم اسنيلاء العثمانيين على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم اليها أى في اليوم الثامن من اغسطس سنة ١٥٣٨ (١٢ ربيع الاول سنة ٩٤٥ هـ) • وقد أمر سليمان باشا الخادم بقتل من بقى من آل طاهر ، وكانت عدن آخر معاقلهم . كما أمر بمصادرة ممتلكاتهم وذلك بحجة انهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين • وقد أنكر كثيرون من المؤرخين هذه التهمة (١٤٥) التى تتعارض تماما مع ما سبق أن أوضحناه عنهم من قبل • وقد أناب سليمان باشا الخادم على حكم عدن أحد سناجق الحملة وهو الامير « بهرام » تساندة قوة قوامها خمسمائة مقاتل عثمانى ، تما حصن مدينة

(١٤٢) عيسى بن لطف الله : المصدر السابق ، مخطوطة ، ج ١ ، ص ١٨ .

(١٤٣) قطب الدين النهروالى : البرق اليماني في الفتح العثماني ، مخطوطة ،

ص ٥ (١) •

(١٤٤) الجرافى ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٨٨

(١٤٥) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبد التاريخ ، ص ٢٦٢ •

عدن بالمدافع (١٤٦) • وقد اخفى سليمان باشا الخادم أسلوبه الغادر في عدن عن المسئولين العثمانيين في استانبول ، وذكر في رسالة بعث بها الى السلطان العثماني « أنه أخذ عدن قهرا » (١٤٧) • غير أن أسلوب سليمان الخادم الذي اتصف بالغدر أفقد العثمانيين ثقة اهالي هذه المناطق ، كما أنه ضيع عليهم فرصة تكوين جبهة اسلامية في البحار العربية والمحيط الهندي لمواجهة خطر البرتغاليين المتزايد (١٤٨) واعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدي القديم عبر مصر والبحر المتوسط •

على أن العثمانيين بعد أن سيطروا على عدن أبحر حملتهم متجهة الى « ديو » لتحقيق المرحلة الثانية من خطتهم انرامية الى محاربة البرتغاليين في البحار الشرقية • وقد وصلت الحملة العثمانية الى «ديو» في اليوم الرابع من سبتمبر سنة ١٥٣٨ غير أنها فشلت في تحقيق غايتها ، نتيجة لضعف شخصية قائدها سليمان الخادم من جهة ، وضعف جبهة حلفائها الهنود في سلطنة « كجرات » وباقي سلطنات ساحل الهند الغربي من جهة أخرى • وكان ما فعلته هذه الحملة هي أنها حاصرت القلعة البرتغالية في « ديو » من ناحية البحر في اليوم الخامس من اكتوبر سنة ١٥٣٨ • بل ان هذا الحصار لم يستمر طويلا بعد ان أدخل على العثمانيين نبأ وصول نجدة برتغالية الى « ديو » • اذ قرر سليمان الخادم رفع الحصار والعودة الى شواطئ الجزيرة العربية وذلك في اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٥٤٨ (١٤٩) • وبذلك اكتفى العثمانيون بأن يكون هدف

Serjeant, R. B. : Op. Cit., P. 95.

(١٤٧) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص

١٨ (ب) •

(١٤٨) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٤٦ •

Denison, R. E. : The Portuguese in India and Arabia J. R. A. S., part (١٤٩)

I., January, 1922, P. 7.

حملتهم قاصرا على اتمام فتح السواحل اليمنية التي يمكن عن طريقها تأمين امبراطوريتهم من الجنوب وحتى يعوضوا أيفسهم عن الفشل (١٥٠) . الذي منوابه في محاربة البرتغاليين على السواحل الهندية .

واذا كان العثمانيون قد نجحوا في السيطرة بعض الوقت على الثغور البحرية الواقعة على طول الساحل الجنوبي لتسبب الجزيرة العربية بما فيها ميناء عدن وثغور حضرموت ، كما نفذوا الى داخل الخليج العربي حتى وصلوا الى البصرة واتصلوا بالامارات العربية في الخليج كعمان والاحساء والبحرين والكويت ، فان سلطانهم لم يستقر هناك نظرا لان سكان المناطق الداخلية لم يعترفوا بالولاء للسلطين العثمانيين مما أدى الى زوال نفوذهم عن تلك المناطق في وقت قصير (١٥١) .

وعقب وصول سليمان الخادم الى ميناء الشحر اليمنى بدأ في اتخاذ الخطوات التنفيذية لاختضاع السواحل اليمنية للسيطرة العثمانية . وقد أصدر أمره بتولية السلطان بدر الطويرق على حكم حضرموت تحت سيادة العثمانيين على أن يدفع لهم جزية سنوية (١٥٢) ثم اتجه بعد ذلك الى عدن التي أبحر منها الى ميناء مخا حيث أنزل قواته الى الساحل استعدادا لاختضاع الممالك في زبيد لسيطرة العثمانيين . وقد أغرق الناخوده أحمد بتعيينه حاكما لليمن نيابة عن الدولة العثمانية (١٥٢) . غير أنه غدر بعامر بن داود وأمر بقتله في ٢٧ فبراير سنة ١٥٣٩ ، وقام بتعيين أحد أمراء

(١٥٠) العقيلي ، محمد بن احمد عيسى : تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٠٧ .

Sanger, K. : The Arabian Peninsula, p. 220.

Serjeant, R. B. Op. Cit., P. 106.

(١٥٣) قطب الدين النهروالي : البرق اليمني في الفتح العثماني ، مخطوطة ، ص ١٩ (١) .

الحملة وهو مصطفى بك نائب «غزة» السابق حاكما لزبيد والمناطق التهامية في اليمن التي كانت خاضعة للحكم المملوكي . وقد استعان سليمان الخادم بكثير من المماليك في بعض المناصب الادارية والحربية مستفيدا من خبرتهم في شئون اليمن . واذا كان العثمانيون قد قضوا على الظاهريين بعد استيلائهم على عدن من جهة ، واخضعوا المماليك بعد استيلائهم على زبيد من جهة أخرى ، فان ذلك كان يعنى بداية المواجهة المباشرة بينهم وبين القوة الثالثة في اليمن وهي الامامة الزيدية من جهة ثالثة ، وهي التي كان يتزعمها حينذاك الامام الزيدى شرف الدين بن يحيى . ورغم محاولة سليمان الخادم استدراج الامام شرف الدين عن طريق الرسل والرسائل على نحو ما فعل مع عامر بن داود والناخوده أحمد ، عبر أن الامام كان متيقظا حذرا ، ولهذا ظل الطرفان يتبادلان الرسائل حتى نادر سليمان الخادم بلاد اليمن ^(١٥٤) دون ان ينجح في القضاء على الامام شرف الدين (١٥٥) . وسيظل نظام الامامة الزيدية قائما في اليمن طوال العهد العثماني وبعده نهايته وحتى قيام ثورة اليمن في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ .

وقد حرص سليمان الخادم على احكام سيطرة العثمانيين على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر حتى يمنع تسرب أية سميكة برتغالية عبر مضيق باب المندب . ولهذا اهتم بتحسين جزيرة قمران وذلك بانزال بعض مدافع الاسطول الكبيرة اليها . كما قام باخضاع ميناء « جيزان » للسيطرة العثمانية اثناء عودته الى جدة ووضعه تحت الاشراف المباشر لوالى زبيد العثماني ^(١٥٦) واخيرا وصل سليمان الخادم الى جدة في ١٣ مارس

(١٥٤) ابن داعر : المصدر السابق ، مخطوطة ، ج ١ ، ق ١ ، ص

١٨٨ (ب) .

(١٥٥) يحيى بن الحسين : المصدر السابق ، مخطوطة ، ص ١٢٢ .

(١٥٦) قطب الدين النهروالى : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ٩٩ ب

سنة ١٥٣٩ ومكث فيها بعض الوقت ثم عاد بعد ذلك الى أستانبول (١٥٧) ،
سينما عادت الحملة العثمانية الى مصر بعد أن انتهت مِّن عملياتها على
الساحل اليمنى •

وتجدر الإشارة الى أن الامور لم تستقر في يد العثمانيين في عدن على
الرغم من أن سليمان الخادم كان قد ترك حامية قوية هناك لتدعيم السيطرة
العثمانية على المدينة • غير أن سكان عدن قاموا بتورده ضد الاتراك مما
اضطر العثمانيين الى توجيه اسطول قوى يقوده « برى باشا » لاقرار
الامور في عدن في سنة ١٥٥١ وليحفظ للدولة العثمانية هيبتها في هذه الجهات
وقد قام « برى » بقصف تحصينات عدن واستولى عليها بهجوم خاطف
وطرد البرتغاليين الذين كانوا قد انتهزوا الفرصة ونفذوا الى هناك ، ثم
ترك فيها حامية قوية وأبحر عائدا الى مصر (١٥٨) • وعلى أية حال فقد
ارتبطت العمليات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين عند المدخل الجنوبي
للبحر الاحمر وفي خليج عدن والمحيط الهندي بفكرة أن عدن هي القاعدة
الاساسية من الناحية الاستراتيجية لهذه العمليات (١٥٩) ، مما أوجب على
العثمانيين ضرورة المحافظة على بقائها في أيديهم •

ولم يتقضى النصف الاول من القرن السادس عشر الا وكان العثمانيون
قد طردوا البرتغاليين من البحر الاحمر واستولوا على الموانى الهامة على
شاطئى الاسيوى والافريقى وهى سواكن وعقيق ومصوع ودهونو على
الساحل الافريقى • كما استولوا على عدن وحصنوا جدة على الساحل
الاسيوى ، وجعلوا من البحر الاحمر بحيرة عثمانية أغلقوها في وجه السفن

Playfair, R. L. : op. Cit., pp. 102, 103.

(١٥٧)

Hunter, F. M. : Op. Cit., P. 163.

(١٥٨)

(١٥٩) محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور) : فتح

العثمانيين عدن عام ١٥٢٨ ، ص ١٢

الاوروبية • وفي منتصف هذا القرن أيضا عين العثمانيون حاكما تركيا على مصوع وآخر على سواكن ، ووضعوا هذين الحاكمين تحت اشراف والي جدة وهو حاكم الحجاز ، كما استعانوا بأحد الزعماء الوطنيين وهو نائب « أركيكو Arikiko للمعاونة في أعمال الحكومة بمصوع ، واستعانوا أيضا بآخر مثله في سواكن ، وكلفوهما بجباية الضرائب من القبائل المنتشرة على الساحل الغربي للبحر الاحمر (١٦٠) •

وتجدر الإشارة الى أن الدولة العثمانية حرصت على تدعيم قوتها في اليمن في عهد السلطان سليم الثاني (٩٧٤ — ٩٨٢ هـ / ١٥٦٦ — ١٥٧٤ م) لتثبيت حكمها هناك أمام مقاومة الامامة الزيدية من جهة ، وللتصدي لنشاط البرتغالي المتزايد في المحيط الهندي من جهة ثانية ، ومحاولة السيطرة على تجارة الهند والشرق الاقصى من جهة ثالثة ، وذلك بإرسال حملة سنان باشا التي وصلت الى اليمن في سنة (٩٧٦ هـ — ١٥٦٩ م) واعتبرت فتحا عثمانيا لليمن (١٦١) وأظهرت أن الدولة العثمانية ظلت تواصل مهمتها حتى هذا التاريخ في التصدي للبرتغاليين في البحار الشرقية (١٦٢) بتدعيم مركزها في اليمن آنذاك (١٦٣) • كما امتد نضال العثمانيين ضد البرتغاليين كذلك الى الساحل الشرقي لافريقيا • فقد أرسل السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) القائد البحري « ميرال بك Mirale Bey » في سنة ١٥٨٨ بقوة لتخليص البلاد الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لافريقيا من السيطرة البرتغالية • وقد قوبل القائد العثماني بالترحاب من قبل سكان

Plowden, W.: Travels in Abyssinia and the Galla Country, PP. 2, 3.

(١٦١) قطب الدين النهروالي : البرق اليمني في الفتح العثماني ، ص ٣١٣

Hammer, J. : Op. Cit., Tome 6., 367.

(١٦٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ •

عمر عبد العزيز (دكتور) : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ١٠٣ !

الامارات الاسلامية في « مدغشقر » و « براوا » و (قسيمايو) اذ نظروا
انبه نظرة المخلص من يد الاجنبي وفضلوا الخضوع للعثمانيين المسلمين
عن الولاء للبرتغاليين (١٦٤) * غير أن العثمانيين لم يستطيعوا أن يحتفظوا
في هذه البلاد بقوات تثبت سلطانهم وتحمي السكان من اغارات البرتغاليين
الذين مالبثوا أن استعادوا سلطانهم وانتقموا من السكان الذين أظهروا
ولاءهم للعثمانيين *

وقد اتخذ الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على السواحل
الافريقية الشرقية فيها السواحل الافريقية لبحر الاحمر صورا متعددة ،
منها أن الدولة العثمانية كانت تؤيد وتعاون الممالك الاسلامية المحيطة بهضبة
الحبشة والتي سميت بممالك الطراز * بينما كانت البرتغال تؤيد الحبشة
ونعيناها على مهاجمة هذه الممالك الاسلامية المحيطة بها * وظل ذلك الصراع
حتى القرن السابع عشر عندما فترت الحماية في الدولتين وضعفت قوتيهما
ففركت الدولة العثمانية اليمن في سنة ١٦٣٥ ، ولم يبق تحت سيادتها الا
بعض الثغور الافريقية يمصوع ، وذلك بعد أن اضطر البرتغاليون الى
التنازل عن مكانتهم في البحار الشرقية لمنافسيهم الهولنديين والانجليس
والفرنسيين الذين أسسوا شركات استعمارية لهم في المحيط الهندي * على
ان العرب في البحار الشرقية بوجه عام وفي البحر الاحمر بوجه خاص ، قد
رحبوا في بداية الامر بمساعدة العثمانيين المسلمين لهم في كفاحهم المرير
ضد البرتغاليين وغيرهم من الاوربيين الذين جاءوا لاستعمار بلادهم
والسيطرة على مقدراتهم * كما قبلوا أن ينزلوا العثمانيين عن قيادة المعركة
بل وأيضا عن السيادة في دارهم مما مهد السبيل أمام العثمانيين للسيطره
على معظم البلاد العربية وخاصة في حوض البحرين المتوسط والاحمر

عفترة قصيرة • وكان ذلك بمثابة الثمن الذى تقاضاه العثمانيون لقاء الحملات التى وجهوها للشاسم ر س ر فى حوض البحر المتوسط من جهة ، ومن قاعدة السويس الى البحار الشرقية من جهة أخرى والتى انتهت جميعها الى الخليج العربى ، وان كان بعضها قد وصل الى سواحل الهند •

واذا كان العثمانيون قد تمكنوا من وقف التوسع البرتغالى ، وتأمين البلدان العربية وخاصة فى حوض البحر المتوسط من عدوان الاسبان والبرتغاليين ، وفى حوض البحر الأحمر من عدوان البرتغاليين ، فانهم عجزوا فى النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهى تحطيم المنافسة البرتغالية فى البحار الشرقية ، وثق طرق واسعة للتجار والملاحين العرب • ويرجع سبب اخفاق العثمانيين فى تحقيق تلك الغاية الى عجزهم عن تأليف العرب والمسلمين فى البحار الشرقية ليوحدوا قواهم جميعا لمكافحة السيطرة البرتغالية • ومن النتائج التى اسر عنها اخفاق العثمانيين فى هذا السبيل انهم أهملوا قواعدهم فى الخليج العربى ، مما اتاح الفرصة للعرب هناك للاحتفاظ باستقلالهم بعض الوقت ، كما اتاح الفرصة للقوى الاجنبية الاخرى من التغلغل فى هذه المناطق عندما حاولت أن تحل محل البرتغاليين فى البحار الشرقية •

وهكذا قام العثمانيون الطاهريين والمماليك بدورهم فى مواجهه غزو البرتغاليين الاستعماري للبحار الشرقية ونحوهاهم للتجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح • ما سمحت ظروفهم وطاقاتهم ، حتى خبا نجم البرتغاليين هناك فى نهاية القرن السادس عشر • ويرجع السبب فى ذلك الى أن البرتغال فقدت استقلالها وضمت الى اسبانيا فى سنة ١٥٨٠ ، مما أدى الى تدهور قوة البرتغاليين على الرغم من أن ملوك اسبانيا ظلوا يرعون

مصالح الامبراطورية البرتغالية لفتره غير قصيرة (١٦٤) . كذلك اتصف البرتغاليون بالتعصب والقسوة في معاملة شعوب المناطق التي سيطروا عليها ، كما أنهم لم يكثرثوا بتنظيم التجارة مع تلك الشعوب (١٦٦) بل أن سياسة البرتغاليين كانت ترمى الى القهر العسكري ثم استغلال الشعوب المقهورة في الحصول على المواد الخام . كما أنهم اعتمدوا كلياً على الرقيق والمتزقة من الهنود وهو أمر لم يكن في صالحهم نظراً لارتباط هؤلاء بأهالي انبلاد الاصليين بطبيعة الحال مما جعلهم لا ينفقون في الحفاظ على المصالح البرتغالية .

• من أهم الاسباب التي أضعفت النظام الاستعماري البرتغالي في بلدان الشرق بوجه عام ، هو أن الملك كان يحتكر تجارة السلع المربحة فلم يترك مجالاً للبرجوازية التي كانت أكثر نشاطاً في النظامين الهولندي والبريطاني . إذ أن تأسيس البرجوازية للشركات الاحتكارية كان يربط مصالح كثير من الافراد بحركة الاستعمار . هذا فصلاً عن عدم وجود نظام دقيق في البحرية البرتغالية ، وتكرر حوادث التمرد والخلافات بين كبار الضباط . وسوف يعقب انهيار القوة البرتغالية ظهور قوى بحرية جديدة في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وتمثلت هذه القوى في الهولنديين . البريطانيين والفرنسيين ، وقد تميزت هذه القوى المنافسة بأنها أكثر ادراكاً للمصالح التجارية (١٦٧) . فقد دخلت هولندا حلبة الصراع في البحار الشرقية لتحقيق أهدافها الاستعمارية عندما أسست شركة الهند الشرقية الهولندية

Fisher, H. A. L. : History of Europe, vol. I. p. 605

(١٦٥)

Wilson, A. T. : Op. Cit., p. 122.

(١٦٦)

(١٦٧) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية في الخليج العربي ،

ص ٢١ .

The Dutch East India Company
سنة ١٥٩٤ (١٦٨) ، ثم
بعقبها انجلترا التي أسست « شركة الهند الشرقية الانجليزية
The East India Company (١٦٩) في سنة ١٦٠٠ (١٧٠) بينما

The Levant Company كانت قد أنشأت من قبل شركة الليفانت
في سنة ١٥٨١ ، التي كانت بها اختصاصات سياسية وتجارية واسعة في
تسقي البحر المتوسط (١٧١) وكذلك أسست فرنسا « شركة الهند الشرقية
الفرنسية Compagnie des Indes في سنة ١٦٦٤ والتي احتكرت نقل
التجارة الفرنسية مع جزر الهند الشرقية ومدغشقر عن طريق رأس الرجاء
الصالح ، (١٧٢) مما أدى في النهاية الى تحطيم الاحتكار البرتغالي لتجارة
الشرق الذي استمر قرابة قرن من الزمان منذ أن وصلت السفن البرتغالية
الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ .

وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية ظلت تحافظ على اغلاق البحر
الاحمر في وجه السفن الأوروبية طوال القرن السادس عشر وتعارض في
فتح كطريق ملاحى حفاظا على أمنها وعلى سلامة الاماكن الاسلامية
المقدسة في الحجاز بعد أن أصبح السلطان العثماني «حامي حامي الحرمين
الشريفيين» وهو أمر يعزز مكانته لدى العالم الاسلامي . وظل البحر الاحمر
قاصرا على السفن العربية والعثمانية المحدودة لتمخر عبابه (١٧٣) . وبدا

(١٦٨) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية في الخليج العربي ،

ص ٢١ .

- Hoskins, H. L. : British Routes to India, pp. 4,5. (١٦٩)
Phillips, C. H. : The East India Company 1784 - 1834, p. 15 (١٧٠)
Epstein, M. : Op. Cit., p. 52. (١٧١)
Hoskins, H. L. : The Growth of British Interest in the (١٧٢)
Route to India, (J. O. F. H.), p. 169. (١٧٣)
Rabath E. : Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans L'evolution du Droit
International, Societe Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962 . ,
pp. 20,21 .

أن الدولة العثمانية كانت تخشى حتى بعد زوال الخطر البرتغالي من فتح البحر الأحمر للتجارة الدولية الى ما سوف يترتب على ذلك من انتعاش مصر الاقتصادية مما يؤدي الى زيادة قوة المماليك ويشجعهم على الانفصال عن كيانها . كما كان السلطان العثماني يرى أن الفوائد الجمركية التي يمكن أن تعود على مصر من هذا الطريق لا تقيد منها الدولة العثمانية شيئاً ، بينما تزيد من قوة المماليك . بل أن الباب العالي كان يخشى أن يؤدي فتح هذا الطريق الملاحى الهام للسفن الأوروبية الى زيادة النفوذ الأجنبي في مصر بما يقطع الأمل في بقائها في حظيرة السلطنة العثمانية .

على أن السلطان العثماني فيما بعد ، لم يجد غضاضة في السماح للسفن الأجنبية بنقل التجارة عبر البحر الأحمر حتى ميناء جده فقط ، ليشكل بذلك حصيلة للحجاز من العوائد الجمركية التي كانت تكفى لسد نفقات رعاية الحرمين ولا تحمل الدولة العثمانية من هذه النفقات في وقت كانت تنوء فيه ميزانياتها بأعبائها الثقيلة . هذا بالإضافة الى أن الباب العالي كان يرى أن الفتحات التجارية في البحر الأحمر سوف يؤدي الى أضعاف التجارة في الخليج العربي والعراق ، وهو الطريق الآخر الذي كانت تصل البضائع عبره الى موانئ البحر المتوسط وإلى صمة الدولة العثمانية نفسها ، بعد أن أفل نجم البرتغاليين في المحيط الهندي في نهاية القرن السادس عشر . ولهذا فقد ظلت الدولة العثمانية ، على تطبيق هذا المبدأ حتى نهاية القرن الثامن عشر ، مما جعلها تحذج بشدة لدى بريطانيا لوصول بعض سفنها الى السويس آنذاك (١٧٤٠) كانت شركة الهند الشرقية

(١٧٤) عبد العزيز الشناوى (دكتور) : الدول العثمانية دولة اسلامية

مفتري عليها ، ج ١ ، ص ١٠-٢١ .

البريطانية تبذل جهودها بصفة دائمة لاهياء طريق التجارة القديم عبر البحر الاحمر ومصر والبحر المتوسط لنقل التجارة والمسافرين بين انجلترا والهند آنذاك ، حتى حصل الانجليز على اتفاق مع على بك الكبير (١٧٦٩ — ١٧٧٣) بحقهم في تجاوز جدة شمالا بمراكبهم الى السويس ، بعد أن كان محرما عليهم ذلك . (١٧٥) . وقد ظل الحال على ذلك في عهد خلفه محمد بك أبى الذهب (١٧٧٣ — ١٧٧٤م) وتابعهم الفرنسيون في الحصول على مثل هذه الامتيازات بعد قليل (١٧٦) .

وعلى أية حال فقد شكل العثمانيون تغطية استراتيجية للحفاظ على أمن العالم الاسلامى في مصر وعالم البحر المتوسط من جهة ، وفي منطقة البحر الاحمر التى تضم الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز من جهة أخرى طوال القرن السادس عشر ، حتى أفل نجم البرتغاليين في البحار الشرقية في نهاية القرن المذكور . وقد جاءت هذه التغطية الاستراتيجية العثمانية للمنطقة المذكورة في وقت كانت تتعرض فيه لفراغ سياسى واستراتيجى نتيجة لانقسام الممالك وفشلهم في صد الغزو البرتغالى الذى كان يهدد المنطقة من جهة ، هذا فضلا عن انهيار الاوضاع الاقتصادية لديهم من جهة أخرى . ويعد هذا الدور أكبر مكرمة للعثمانيين في جوهر علاقاتهم بأشقائهم المسلمين في عالمي البحرين المتوسط والاحمر في القرن السادس عشر ، كما يؤكد وحدة المنطقة في مجال التخطيط الاستراتيجى لقضية أمنها وسلامتها .

وفي ختام هذا البحث فانه يمكن القول بأن تحول التجارة العالمية

Aitchison, C. U.: A Collection of Treaties, Engagements and Sanads, (٢٧٥) relating to India and the Neighbouring Countries, Vol. XI, p. 123. (١٧٦)
Marston, T. E. : Op. Cit., pp. 31, 32.

الى طريق رأس الرجاء الصالح كان له أثرا واضحا في مقدرات مصر وعالم البحر المتوسط اقتصاديا وسياسيا ودبلوماسيا واستراتيجيا أثناء القرن السادس عشر الميلادى بالقدر الذى أوضحناه على مدار هذا البحث . وقد تبينا أن الطرق البرية المؤدية الى مصر وعالم البحر المتوسط سواء من ناحية الشرق من العراق والشام والجزيرة العربية ، أو من ناحية الجنوب من أواسط القارة الأفريقية ، وخاصة من الصومال ونيوبيا والسودان وصعيد مصر ، أو من ناحية الغرب من أرجاء المغرب العربى من طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش ، فضلا عن النطاق الداخلى للبحر الاحمر حتى مضيق باب المندب ، والخليج العربى حتى مضيق هرمز ، قد مر عبرها قدر نسبى من التجارة العالمية . وقد ساعد على تنشيط حركة التجارة العالمية فى الطرق البرية والبحرية المشار اليها رحلة الحج السنوية الى الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز ذهابا وعودة ، على الرغم من الحصار البرتغالى للمنافذ البحرية المؤدية للمحيط الهندى أثناء القرن السادس عشر الميلادى وتوضح الوثائق الملحقه بالبحث والمحفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية والتي تخص محكمة الاسكندرية الشرعية والعائدة الى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى (١٧٧) استمرارية

(١٧٧) أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، محكمة الاسكندرية الشرعية دفتر سجل مبيعات رقم (١) ويعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ هـ - ١٥٥٠ م) الى ١٧ شعبان سنة ٩٥٨ هـ (١٥٥١ م) ، ص ٢٤ مادة ١٠٩ ، ص ٣٦ مادة ١٦٦ ، ص ٣٨ مادة ١٧٥ ، ص ٤٨ مادة ٢١٧ ، ص ٥٥ مادة ١٤٦ ، ص ٩٩ مادة ٤٧١ ، ص ١٠٢ مادة ٢٨٤ ، ص ٢٠٧ مادة ٩١٨ ، ص ٢٣١ مادة ١٠١٦ ، ص ٣٢٧ مادة ١٣٩٢ ، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩٥ ، ص ٣٣٩ مادة ١٤٣٧ ، ص ٤١٣ مادة ١٧٣٢ ، وهى وثائق تتعلق بنشاط التجارة المغاربة بالاسكندرية ولم يسبق نشرها ، وتمثل المجموعة الاولى الملحقه بالبحث ، ص ٩٢ مادة ٤٣٥ ، ص ٩٦ مادة ٤٥٦ ، ص ٦٠ مادة ٢٧٠ ، ص ١١٤ مادة ٥٤٠ ، ص ٣٢٨ مادة

النشاط التجارى النسبى فى مصر وعالم البحر المتوسط فى ذلك الحين غير أن هذا القدر من التجارة العالمية ، وهذا النشاط التجارى النسبى الذى شهدته القرن السادس عشر ، لم يوفر لسكان مصر ولعالم البحر المتوسط نفس القدر من الازدهار الاقتصادى الذى عاشوا فى ظلاله الوارفة قبل تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

١٣٩٤ ، ص ٣٢٨ ، مادة ١٣٩٣ ، ص ٣٢٠ مادة ١٣٦٤ ، وهى وثائق تتعلق بالنشاط التجارى لنجاليات الاوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط فى مدينة الاسكندرية فى الفترة المذكورة ، وتمثل المجموعة الملحقه بالبحث .

الملاحق

(المجموعة الوثائقية الاولى)

وثائق محفوظة بأرشفيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية ولم يسبق نشرها وهى تثبت وجود نشاط تجارى نسبى كانت تقوم به الجالية المغربية بالاسكندرية فى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، فى الفترة (من ٢٤ شعبان سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) الى ١٧ شعبان سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م) .

(الوثيقة رقم ١)

- أرشفيف الشهر العقارى بالاسكندرية
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .
- عملية محكمة الاسكندرية الشرعية
- مادة رقم ١٠٩ صفحة ٢٤ .
- الحمد لله وبه اكتفى يوم الاثنين المبارك حادى عشر شهر رمضان المعظم قدره وحرمة سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) .
- لدى سيدنا الحاكم الكتامى المالكى أيدى الله تعالى .
- موضوع الوثيقة : تسليم شحنة متاجر كتان وقطن وأرز وعدس لاصحابها بالاسكندرية منقولة بواسطة سفينة يمتلكها مغربى .

أشهد عليه المعلم يوسف بن موسى اليهودى الربان العامل بالتغر شهوده الاشهاد الشرعى أنه تسلم من الرايس يوسف بن أبو سعيد بن نصر

العربي المغربي الاسفاقيسي ^(١) ما كان مشحونا بمركبه باسم مولاي مسعود الجربي ^(٢) الامير ببلاد العدو المتخذول وهو من الكتان تسع خيشات زنة ذلك ثلاثة آلاف رطلا وتسعمائة رطل وخمسة وثلاثون رطلا وقطعتين قطن زنتها مائة رطل وثلاثة وتسعون رطلا وثلاثة غزاويات أرز وقفة عدس وما هو باسم الحاج محمد بن محمد المغربي النقطي عرف بابن أبو عكازين المفقود الان ببلاد النصارى قطعة قطن زنتها ثلث مائة رطلا واربعة وخمسون رطل وخيشة كتان زنتها أربعماية رطل وخمسة وثمانين رطل وما هو باسم جمعة بن عبد الله الاسود اللون قطعة قطن مائتا رطل واثنان وما هو باسم أبا داود التركي ثلاث قطع تيل عجمي زنتها اربعين رطل وزنبيل التسلم الشرعى ووضع ذلك بحاصل بالديوان السعيد وأمهر عليه بمهر الحاكم الشرعى بالشعر حرر ذلك فى تاريخه .

(الوثيقة رقم ٢)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) .
- موضوع الوثيقة : تاجران مغربيان يتقاضيان على دين بينهما .

(١) الاسفاقيسي وصحتها الاسفاقيسي نسبة الى مدينة صفاقس التونسية الواقعة على الساحل الشرقى لتونس المطل على البحر المتوسط .
(٢) الجربي نسبة الى جزيرة جربة الواقعة فى مواجهة الساحل الجنوبى الشرقى لتونس المطل على البحر المتوسط .

— مادة رقم ١٦٦ ص ٣٦ •

— يوم الاحد المبارك سابع عشر رمضان المعظم قدره (٥٩٥٧ هـ —

١٥٥١م) وفيه لديه أحسن الله اليه •

ادعى الزينى عبد اللطيف بن ابراهيم بن عبد الله المغربى الاقلىبى^(٣) على الشمسى محمد الحاج عياد بن سليمان المغربى الطرابلسى أنه يستحق فى ذمته مبلغا قدره من الذهب السلطانى الجديد مغاملة تاريخية أربعة وثلاثون دينارا^(٤) عن ثلاثة محادر كتان دفع ذلك له ليوصله لامين الدين بن شمس الدين بن زين الدين بن عبد الوهاب الشهير بابن خالد المصرى الطولونى وأنه لم يوصل ذلك اليه وادعى على المدعى عليه بذلك بمحكمة السادة المالكية بالصالحية النجمية بالديار المصرية وضمنه له الحاج أبو عبد الله الباجورى والشمسى محمد الصباغ والحاج عمر الخانى والحاج ابراهيم النشيلى الى أن يحضر ما يخلصه من ذلك ويطالبه بذلك ويسأل سؤاله عنه قبل فأجاب بالاعتراف فى ذلك وادعى أنه دفع ذلك للزينى أمين الدين المذكور مما كان له من جملة ما كان له تحت يده من ديون ومعاملات وتركات وحوالات^(٥) وغير ذلك مما هو معلوم عندهما شرعا ولم يصدق المدعى

(٣) الاقلىبى نسبة الى مدينة قليبية التونسية الساحلية الواقعة فى أقصى الساحل الشمالى الشرقى لتونس المطل على البحر المتوسط •

(٤) الدينار : كلمة مشتقة من اللفظ السلاطينى Denarius Aureus وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند الرومان • وقد عرف العرب هذه العملة الذهبية وتعاملوا بها قبل الاسلام وبعده • ويقول المقرئى أنه يزن مثقالا من الذهب • والوزن الشرعى له هو ٢٥٠ جرام وما زال لفظ الدينار يطلق على العملة الاساسية فى كثير من البلاد حتى الان ، وان كان لا يعنى بالضرورة العملة الذهبية (حسن محمود الشافعى ، العملة وتاريخها ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٨٣) •

(٥) حوالة : بمعنى تحويل قبض المبالغ ، وترد فى الوثائق بمعنى الشخص المحول اليه تحصيل مبالغ وضرائب نقدية أو عينية • (ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤٤٥) •

على ذلك وطولب للمدعى عليه بالبيان على ذلك فابرز من يده حجة مكليه
بالمحكمة المشار اليها لدى سيدنا الحاكم المشار اليه متضمنة لتصادق الزينى
أمين الدين والحاج شمس الدين للمدعى عليه على أن آخر ما استحقه
الزينى أمين الدين المذكور فى ذمة الحاج شمس الدين المدعى عليه من ديون
ومعاملات وحوالات وغير ذلك مما هو معلوم عندهما شرعا مبلغا قدره
من الفضة السلیمانية ستة آلاف نصف (٦) للمدعى على ذلك وأقر له بعدم
الاستحقاق من الجانبين ثابتة محكوم بها لدى سيدنا الحاكم المشار اليه
أحسن الله اليه وذكر أن القدر المدعى به من داخل الحجة المذكورة ولم
يصدق المدعى على ذلك وطولب المدعى عليه بالبيان على ذلك فأحضر كل من
الحاج ميلاد بن المرحوم الزينى قاسم بن محمد الغيلوط المغربى الطرابلسى
والشمس محمد عبد الجبار بن محمد المغربى الاسفاقسى والنورى على
بن المرحوم خليفة بن محمد المعروف بجده والزينى عطيه ابن النورى بن
عبد الرحمن المغربى المصمودى وسألهم للاشهاد له بما يعلمون من ذلك
فأدوا شهادتهم لدى سيدنا الحاكم المشار اليه بأن القدر المدعى به عن
الثلاثة خيش الكتان داخل فى التصديق والابرام المشروح ذلك أعلاه فحينئذ
سأل المدعى سيدنا الحاكم المشار اليه بثبوت ذلك والحكم له به الثبوت
الشرعى وحكم الله تعالى احكامه بموجب ما ثبت لديه حكما صحيحا شرعيا

(٦) نصف فضة نقد تركى عثمانى ، ضرب أولا من الفضة بقيمة قدرها
أربع أقباجات « أخشا » وسرعان ما اختلف مركز « الاخشا » باعتبارها الوحدة
النقدية التركية العثمانية الصفري حتى أصبحت الفضة تساوى ١ : ٤٠ من
القرش ، بوزن قدره ست عشرة قحمة أى ١١١ جرام ، ثم انخفض وزنها الى
ربع ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، وقل ما فيها من فضة . ويرادفه
اسم البارة والفضة فى عصر الجبرتى اسم « نصف فضة » ، و « مؤيدى » ، وقد
كانت هذه العملة وسيلة هامة لتحقيق مرونة العمليات التجارية فى مصر (عبد
الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، فى كتاب عبد الرحمن الجبرتى ،
دراسات وبحوث ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص ٥٧٣) .

تاما معتبرا مرضيا مسيولا في ذلك مستوفيا شرائطه الشرعية وواجباته
الحررة المرعية واعتبار ما يجب اعتباره شرعا مقضيا كل ذى حجة صحيحة
على حجته ان كانت مع العلم بالخلاف في ذلك وشهد على نفسه الكريمة
بذلك وبه شهد في تاريخه • شهود الحال •

(الوثيقة رقم ٣)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) •
- محكمة اسكندرية الشرعية •
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ — ١٥٥٠م) •
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) •
- يوم الاثنين المبارك ثامن عشر رمضان المعظم سنة (٩٥٧ — ١٥٥٠م) •
- وفيه لدى مولانا أفندى دامت فضايلة •
- مادة رقم ١٧٥ ص ٣٨ •
- موضوع الوثيقة : تاجر مغربى يقاضى رجلا آخر حول دين بينهما •
- ادعى الحاج أحمد الحاج رمضان بن أحمد المغربى التونسى على
يوسف بن عبد الله المهتدى من أهل الغلطة أنه يستحق في ذمته مبلغا قدره
من الذهب السلطانى الجديد سبعون دينارا دفع ذلك له بجزيرة جربا
ليفتدى بها نفسه من الاسر ويطالبه بذلك ويسال سؤاله قبل فأجاب
بالاعتراف في ثمانية وثلاثين دينارا ذهب مشحر وانه دفع له ثلاثة خواتم
ذهب وزوج حلق ذهب ولولو ولم يصدق المدعى على ذلك وطولب كل
منهما بالبيان فذكر المدعى أن بيده ورقة بخط النصارى والمسلمين وذكر
المدعى عليه والتمس عنه على ذلك فطلب المدعى من المدعى عليه ما اعترف به

وهو ثلاثون دينارا وأوقف الثمانية دنانير على الحلف أو الإقامة واعتقل على
وذلك بسجن الشرع الشريف .
شهود الحال .

(الوثيقة رقم ٤)

- أرشيف الشهر العقارى بـلاستندرية .
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (١٥٥٠م — ١٥٥٧م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (١٥٥٨م — ١٥٥١م) .
- مادة رقم ٢١٧ ص ٤٨ .

الحمد لله الواحد القهار يوم الاحد المبارك الرابع والعشرين من
شهر رمضان المعظم (١٥٥٧م — ١٥٥٠م) .
— موضوع الوثيقة : اتفاق بين تاجرين من المغاربة بشأن تجارة
الكتان .

اشهد عليه الحاج شهاب الدين أحمد الحاج سعيد بن الشهابي أحمد
الشهير بالكلابى المغربى التونسى شهوده الاشهاد الشرعى أنه وصل اليه
من الحاج محمد بن الحاج محمد سعيد الشهير بابن الغراب المغربى
الانسفاقتى عشرين خيشة كتان زنة ذلك ما قدره من القنطير (٧) المصرية

(٧) القنطار : وحدة من وحدات الوزن ، وكان حجمه يختلف تبعا للزمان ،
وكذلك المكان الذى كان يستخدم فيه عملية الوزن . وفى اواخر العصر المملوكى
كان يتراوح وزن القنطار ما بين ١٦ر٤٥ كيلو جرام ، وفى سنة ١٦٦٥م وصل
وزنه الى ١٢٠ كيلو جرام .

ثمانية وسبعون قنطارا ونصف قنطار ونصف قنطار تنفيا على العسادة الوصول الشرعى بالقبض الشرعى واذنه أن يسافر بذلك بمركب باب اعلى موسى الى مدينة اسطنبول ويبيع ذلك هناك بالنقد ومهما أطلع الله تعالى في ذلك من ربح ويسره من فائدة بعد اخراج رأس المال والمون والكلف والاجر وحق الله تعالى ان وجب كان مقسوم بينهما نصفين بالسوية لامتية لاحدهما على الآخر وعلى الحاج احمد المذكور العمل في ذلك بتقوى الله تعالى وطاعته في سره وعلائيته وتوافقا على أن الحاج احمد المذكور لا يتوجه سوى لمدينة اسطنبول ويعود منها الى الثغر السكندري مع سلامة الله تعالى حسبا تصادقا على ذلك التصادق الشرعى فشهد عليهما بذلك في تاريخه .

شهود الحال

(الوثيقة رقم ٥)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (١٩٥٧ هـ — ١٣٥٠ م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ هـ — ١٣٥١ م) .
- في يوم الخميس المبارك ثامن عشرين رمضان سنة تاريخه (١٩٥٧ هـ — ١٣٥٠ م) .
- وفيه لديه احسن الله اليه .
- مادة رقم ٢٤٦ ص ٥٥ .

— موضوع الوثيقة : اتفاق بين تاجر أندلسي وعامل رشيدى بحول
استجاره لقلطة مركبة الشراعى •

ادعى على بن محمد على الاندلسى على المعلم على بن محمد الفقيه
على الجلفاط الرشيدى أنه استأجره على جلفطه ^(٨) مركبة الغليون ^(٩)
باللف وهو ومن يستعين به وأنه عمل عنده فيه خمسة وتسعون يوما هو
وصناعة تسعة أنفار موايمه له بمفرده فى كل يوم بسبعة أنصاف وثمان
صناع كل صانع بستة أنصاف كل يوم وصبى بنصفين كل يوم وأنه دفع
له أجرته وأجرة صناعه عن المدة المذكورة ماعدى ثمانية وعشرين نصفا
وسأل سوءاله عن ذلك قبل فأجاب بأن وصل اليه ستة عشر دينارا ذهبيا
من ذلك ثمانية دنانير أكرونه ودينار قاييبي وخمسة دنانير ذهب بنادقة ^(١٠) على

(٨) كلمة جلفطة صحتها قلطة وتعنى القيام بحشو الكتان المبلل بالقطران
أو الشمع ووضعه بين ألواح السفن وذلك لئلا تسرب المياه الى داخل السفينة
ويعرف القائمون بهذه العملية بالقلطة . (سعاد ماهر : البحرية فى مصر
الاسلامية وآثارها الباقية ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧ ، ص ١٧١) .

(٩) المركب الغليون : يجمع على : غلايين وغلاوين . والكلمة مصرية عن
الاسبانية Galeon وقد وصفه « دوزى » بأنه نوع من المراكب على
الاطراف ، واكتفى يحيى الشهابى « عند التعريف به بأنه قال « ضرب من المراكب
الشراعية الاسبانية وتصفه المعاجم الانجليزية والفرنسية بأنه مركب اسباني
ضخم يمتاز بعظم المقدم والمؤخر ، كان يستعمل فى الغالب لحمل كنوز مناجم
بيرو والمكسيك الى اسبانيا وذكره « الادهمى الطرابلسى » فقال : « فلم نزل
والغليون بنا يسير حتى رسينا بهينة حيفا بعد خمسة ايام » ، فهو على هذا
كان يستعمل لنقل المسافرين أيضا . وقد وقع اللفظ فى حكايات « الف ليلة وليلة »
كنوع من المراكب التى تستعمل فى القنال وفى نقل المسافرين . (درويش
النخلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم . دار المعارف : الاسكندرية ،
١٩٧٩ ، ص ١١٢ — ١١٣) .

(١٠) البندقى : نقد ذهب . ذو عيار عال يقرب من أربعة وعشرين قيراطا ،
وهو ينسب الى مدينة البندقية التى بدأت فى ضربه حوالى سنة ١٢٥٢ ، فى وقت
كانت نقود الممالك من الدنانير الذهب قد بدأت تفقد سمعتها العالمية ، بسبب

يد صانع جعيدي ديناراً واحداً والدينار فضة معه ومع جماعته وخمسة أنصاف وإن من ذلك ستة دنانير من مونتته هو وصناعه وباقي ذلك من أجره وأجرة صناعة أشهد عليه كل من المدعى والمدعى عليه أنه لا يستحق على الآخر لسبب ذلك حقاً مطلقاً ولا شيء من ذلك وأن المدعى عليه وصل إلى أجرته وأجرة صناعة ولم يتأخر لكل منهما قبل الآخر حقاً مطلقاً وبه شهد.

شهود الحال .

(الوثيقة رقم ٦)

- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان (١٥٥٧ هـ — ١٥٥٠ م) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ — ١٥٥١ م) .
- يوم الجمعة ٢٧ شوال سنة (١٥٥٧ هـ — ١٥٥٠ م) .
- مادة رقم ٤٧١ ص ٩٩ .
- موضوع الوثيقة : استئجار عامل للعمل على مركب تبصر من الاسكندرية إلى فزان .

عدم العناية بنقوشها مع خفض عيارها وتقارب أوزانها مما دفع شعوب الشرق وسلاطين الممالك الجراكسة الاقبال على التعامل بالبندقي ، أو الدوكات ، واطلق المؤرخون على هذا النوع من النقود اسم الشخصية للصور الادمية المنقوشة عليه ، ومن بينها صور القديسين وصور دوج البندقية الذي نسب إليه النقد دوكات ويشير المقرئ إلى أنه منذ سنة ٨١٠ هـ كثر تداول الدوكات في مصر ، وتمتعت بسعر قانوني حتى أن جمر ك اسكندرية اصر على أن يدفع التجار الاوروبيون قيمة البضائع السلطانية بالسبائك الذهبية أو البندقية ، ومعنى هذا أن البندقي قد شاع تداوله في اسواق مصر متمتعاً بثقة كبيرة في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، وما جاء العصر العثماني الا وكان البندقي قد تغلغل كوسيط للمبادلة في كل اقليم مصر . (عبد الرحمن فهمي ، النقود المتداولة أيام الجبرتي ، في كتاب عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث ، القاهرة : ١٩٧٦ . ص ٥٧٧) .

ادعى دردير بن عمر بن دياب السليمانى على الحاج على بن محمد
ابو عبد الله النزايلى الحرام أن أبو جازية استأجره من ثغر اسكندرية
الى فزان بخمسة دنانير ذهباً سلطانياً جديداً وأنه توجه صحبته الى القرب
من فزان بنحو خمسة عشر يوماً، فمات أبو جازية فاستمر على موجوده
الى أن أوصله الى شركايه بفزان وأن شركاه وصلوا موجوده الى المدعى
عليه ويطلبه بأجرته من موجوده ويسيل سؤاله عن ذلك فسيل فأجساب
بالانكار فطلب من المدعى البيان على ذلك فذكر أن له بيعة يحضرها عند
تاريخه .

(الوثيقة رقم ٧)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ١٤ شعبان سنة (١٥٥٠م — ١٥٥٧م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (١٥٥٨م — ١٥٥١م) .
- ٢٩ شوال سنة (١٥٥٧م — ١٥٥٠م) .
- مادة رقم ٤٨٤ ص ١٠٢ .
- موضوع الوثيقة : مغربى يبيع عبداً بستة عشر ديناراً بالاسكندرية
ادعى أحمد الحاج عمر بن الحاج عمر عرف بالجاموس على الشهابى
أحمد محمد أبو الكرم المغربى التونسى المعروف بشيخ الزاوية أنه سلمه
عبداً أسود ليبيعه له من مدة أربعة أيام تقدمت على تاريخه ويطلبه بالعبد
المذكور ويسال سؤاله عنه فسيل فأجاب بالاعتراف فى ذلك وأنه أذنه فى بيعه

مستة عشر دينارا وأنه باعه بذلك ولم يصدق المدعى على ذلك وطولب المدعى عليه بالبيان عن ذلك فذكر أن لا بينة له والتمس عنه على ذلك محلف والزم بدفع العبد المذكور •

(الوثيقة رقم ٨)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) •
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية •
- من ١٤ شعبان سنة (٩٥٧ — ١٥٥٠ م) •
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ — ١٥٥١ م) •
- يوم الثلاثاء ١٩ محرم سنة (٩٥٨ — ١٥٥١ م) •
- مادة رقم ١٨ ٩ ص ٢٠٧ •
- موضوع الوثيقة : تاجر رشيدى يتقاضى مع تاجر مغربى حول مبلغ من المال بينهما •

ادعى مساعد بن سليمان بن عيونس الرشيدى على الرايس على بن محمد عبد العزيز المغربى الجربى عرف اللجيمى أنه يستحق عليه من الذهب المشحر ستة وعشرون دينارا حصته التى خصته معه فى سفرة من الثغر السكندرى الى جزيرة جربا اسوة امثاله من الريسا ويطلبه بذلك ويسأل سؤاله فسيل فأجاب بأن حصته سبع دنانير وربع دينار وأنه دفع له ذلك وزيادة ثلاثة أرباع دينار وأنكر ما عدى ذلك وطولب الادعى بالبيان على ذلك فذكر أن له بينة لتشهد على اقراره بأنه طالبه بحصته فقال له عندى تسع دنانير دفعها له بالثغر السكندرى وخرج ليحضرها ثم وقف بينهما متوسط صلح أصلح بينهما على أن كل منهما لا يستحق على الآخر بسبب هذه الدعوى

ولا غيرها حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا دعوى ولا طلبا بوجه ولا سبب ولا فضا ولا ذهب ولا أجر ولا ثمن ولا مئنا ولا قبضا ولا أقباضا ولا قرضا ولا اقتراضا ولا موهوما ولا وديعة ولا عادية ولا ما تصح به الدعوى ولا ما تعامر به البينه ولا من قل ولا جل عما مضى من الزمان والى تاريخه وان الرايس مساعد المذكور لا يستحق فى الدفع الكبير الذى بالمركب المشترك بين الرايس مساعد وبين ورثة الحاج محمد بركات حقا مطلقا والتزم الرايس على أنه متى قام صالح بن أحمد الجربى اللجيمى مطالبا الرايس مساعد المذكور بحق مالى نشأ سببه عن مارمى له بالبحر من الفراغ وثبت ذلك عليه بطريقة الشرعى والزم بدفعه فدفعه كان على الرايس على المذكور القيام له بذلك من ماله وقبلت حالة بالغما ما بلغ الزاما شرعيا خاليا عن العوض والشرط المفسد لذلك مقرا على أنه وقدرته على ما التزمه وقبل منه ذلك الرايس مساعد القبول الشرعى وتصادفا على ذلك التصادق الشرعى فشهد عليهما بذلك وبالتوكيل فى ثبوتيه وطلب الحكم به توكيلا شرعيا فى تاريخه شهود الحال •

(الوثيقة رقم ٩)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) •
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية •
- من ٢٤ شعبان سنة (١٩٥٧ هـ — ١٣٥٠ م) •
- الى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ هـ — ١٣٥١ م) •
- يوم الاحد ١٩ صفر الخير سنة (١٩٥٨ — ١٣٥١ م) •
- مادة رقم ١٠١٦ ص ٢٣١ •
- موضوع الوثيقة : زواج مصرى بابنة مغربى بالاسكندرية •

تزوج سالم بن خضر بن شحاته الدمنهورى المعروف بابن هـاجر بمخطوبته سليمه البكر البالغ ابنة على بن يحيى المغربى الجربى على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصادق جملته من الذهب السلطانى الجديد سبعة دنانير ومن الفضة الجديدة السليمانية مايتا نصف ببيان الحال من من ذلك مبلغ الذهب أعترف والد الزوجة المذكور بقبضه وذلك خمسة دنانير الاثمانية عشر نصفاً والباقى على حكمه والباقى مبلغ الفضة مقسط لها عليه فى مدة عشرين سنة قسط كل سنة فى سلخها عشرة انصاف الى الوفا ان شالله تعالى زوجها منه بذلك والدها المذكور بعد الوضوح الشرعى بشهادة كل من محمد منصور بن يفلح الجربى وعمر بن سليمان بن صالح الجربى تزويجا شرعيا وقبله الزوج المذكور لنفسه القبول الشرعى وتوافق للزوج المذكور أن يكسوا زوجته المذكورة كسوة للشتا وكسوة للصيف ورضى لها والدها المذكور بذلك وبه شهد فى تاريخه • شهود الحال •

(الوثيقة رقم ١٠)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) •
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية •
- من ٢٤ شعبان (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •
- الى ١٧ شعبان (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •
- يوم الجمعة المبارك ١٠ ربيع الثانى سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) •
- مادة رقم ١٣٩٢ ص ٣٢٧ •
- موضوع الوثيقة : مغربى يثبت حقه فى حلى فضية لدى صائغ يهودى •

ادعى جمعه بن منصور بن عبد الله المغربي الجربى رايس قلاع
مركب الرايس سليمان ان كان معه تحكية فضة زنتها عشرون درهما (١١)
وقعت منه بباب البحر منذ شهر مقدم على تاريخه وأنه وجدها بيد غلانم
بن عبد الله بن محمد الدلال المعروف بشعت يبيعها بسوق باب البحر
يوم تاريخه ويسال سوا له عن ذلك فسيل فأجاب بأنه شميلة اليهودى الصايغ
دفعها له وطولب المدعى بالبيان على ذلك فأحضر يحيى بن يونس بن سالم
المغربى الجرابى — عبد الرحمن بن محمد بن عيسى المغربى الجربى وسألهما
للاشهاد له بما يعلماه فى ذلك فاديا شهادتهما بأن التحكية المذكورة جارية
فى ملك المدعى المذكور الى تاريخه وأنها ضاعت منه من المدة المذكورة *

(الوثيقة رقم ١١)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية *
- دفتر عمليات رقم (١) *
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية *
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) *
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) ؟ *
- يوم الجمعة ١٠ ربيع الثانى (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) *
- مادة رقم ١٣٩٥ ص ٣٢٨ *

(١١) الدرهم : وحده من وحدات السكة الاسلامية الفضية . وهو
مشتق من اسم الدراخمة اليونانية ، وقد استعاره العرب فى المعاملات من
الفرس اذ كانت الاقاليم الشرقية من العالم الاسلامى تتعامل بالدراهم الفضية
عند الفتح العربى لها ، ويزن الدرهم ١٥ قيراطا ، والقيراط اربع حبات والحبة
واحدة الحب وتعنى بذور الشعير . ويبلغ وزنه الشرعى ٢٩٧ ر٢ جراما .
ولازالت بعض البلاد العربية تستعمل الدرهم كعملة اساسية الى اليوم وان
كانت دراهم غير فضية (حسن محمود الشافعى ، العملة وتاريخها ص ٨٤) .

— وفيه لدى سيدنا الشيخ شمس الدين الكتامي المالكى أيدى الله تعالى .

— موضوع الوثيقة : مغربي يبيع حمارا بدينارين ذهباً أو كرونيا .
ادعى سعيد بن يحيى بن عبد الله المغربي الجبالي على المعلم قحضر الدين ابن الحاج أبو الخير الكنانى أنه وضع يده له على حمار أشهب بغير طريق شرعى مدة سبعة أشهر ويطالبه بذلك ويسال سوائه عنه فسيل فأجاب بأنه باعه الحمار المذكور بدينارين ذهباً أو كرونيا ولم يصدقه على ذلك وطول المدعى عليه بالبيان فأحضر الحاج محمد بن عبد الله من أهل سستهور . المعروف بابن فارس وساله للاشهاد له بما فى ذلك فادى شهادته بأنه ابتاع منه الحمار المذكور بالدينارين المذكوره وصدقه على ذلك واقبضه الدينارين المذكورة وخرجا على ذلك حرر ذلك فى تاريخه شهود الحال .

(الوثيقة رقم ١٢)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ هـ — ١٥٥٠) .
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ هـ — ١٥٥١ م) .
- يوم الجمعة المبارك ١٧ ربيع الثانى سنة ٩٥٨ هـ — ١٥٥١ م .
- مادة رقم ١٤٣٧ ص ٣٣٩ .

— موضوع الوثيقة : اتفاق بين جزائري ويهودى على تشغيل مركب للسفر الى المغرب .

تصادق البرايس اسماعيل بن سليمان بن ناصر الشهير بابن بلال الجزائري والمعلم اسحاق ابن اسرائيل بن يحيى اليهودى الزبان الوكيل

الشرعى عن المعلم ابراهيم كاستروا العامل بالثغر كان مصادقة شرعية عرف معناها وما يترتب عليها شرعا على أن جميع المركب الغليون المكمل بالعدد والمدافع دلالة مجارى الريح على العادة المعلوم عندهما شرعا بين الرايس اسماعيل والمعلم يهود الموكل المذكور اثلاثا ما هو للرايس اسماعيل الثلث وما هو للمعلم يهود الموكل المذكور ثلثان وأن جميع ما صرف على المركب المذكور الى تاريخه صرف من مال كل منهما لم يتأخر لاحد منهما قبله الاخر بسبب ذلك ولا بسبب القومانية (١٢) التى صرفت برسم السفر الى بلاد المغرب وقدرها ألف نصف ببيان واربعمئة نصف وخمسة وستون نصفًا حقًا مطلقًا ولا استحقاقًا ولا شئ قل ولا جل لما مضى من الزمان والى تاريخه وان المعلم يعقوب بن اسحاق بن موسى عرف بابن مشهيلة اليهودى الربان وكيلا على حصة المعلم ليهود المذكور وقبض ما ينوبه من الاجرة والقومانية على جارى العادة وان لا يفعل أحد من الرايس اسماعيل والوكيل المذكور الا بمعرفة الاخر وأقر الرايس اسماعيل المذكور الاقرار الشرعى ان فى ذمته للمعلم يهود المذكور بعد كل حساب من الذهب السلطانى الجديد مايتا دينار ثنتان وخمسة وسبعون دينارا وأنه دفع من ذلك عن المعلم يهود المذكور بجزيرة جربا من ممالك وجوار من الذهب المشحر مائة دينار واحده وثلاثة دنانير تاخر عليه باقى ذلك حسبما تصادقا على ذلك التصديق الشرعى فشهد عليهما بذلك فى تاريخه شهود الحال .

(الوثيقة رقم ١٣)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .

(١٢) القومانية : تموين يعد لحجاج بيت الله الحرام من غلال ويقسماط ودقيق وغير ذلك .

- عملية محكمة اسكندرية الشرعية •
- من ٢٤ شعبان سنة (١٥٥٠م — ١٥٥٧م) •
- الى ١٧ شعبان سنة (١٥٥٨م — ١٥٥١م) •
- يوم الاثنين ١٣ جماد الثاني سنة (١٥٥٨م — ١٥٥١م) •
- مادة رقم ١٧٣٢ ص ٤١٣ •
- موضوع الوثيقة : تأجير وكالة بسوق باب البحر بالاسكندرية لاحد التجار المغاربة •

أجر الناصري محمد المرحوم الجنب العالى البهري حسن بن المرحوم الجنب العالى الامير سنان بك أمير اللوا السلطاني بالثغر كان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان الحاج أحمد محمد ابو الكرم المغربي التونسي المعروف بشيخ الزاوية ماذكر أنه جار في استحقاقه وتحت نظره وله ايجاره وقبض اجرته بالطريق الشرعى وصدقه على ذلك المستأجر المذكور بالتصديق الشرعى وذلك جميع الوكالة الكبرى الكامنة داخل الثغر بسوق باب البحر المعروفة بوكالة جد الموخر للمذكور المشتملة على حواصل سفلية وعلوية عدتها ستة وخمسون حاصلا وخمسة حوانيت مستخرجة من الوكالة المذكورة الموجرة على المستأجر المذكور مدة سابقة على تاريخه آخرها سلخ شهر تاريخه المعلوم ذلك عندهما العلم الشرعى النافى للجهالة باعترافهما بذلك اجارة شرعية لينتفع المستأجر المذكور الانتفاع الشرعى كيف شاعلى الوجه الشرعى لمدة ثلاث سنوات مستقبلات تلى مدة تواجره أولها شهر رجب الاتى بعد دفعة شهر تاريخه باجره مبلغها عن ذلك من الفضة الجديدة السليمانية معاملة تاريخه بالديار المصرية ثمانية آلاف نصف واربعمائة نصف يقوم له باجره كل سنة على ثلاثة أقساط متساوية فى المدة والاجرة ماهى للموخر المذكور الثلثان وما هو لأخته شقيقته تاج الملوك

المرأة الثالث مقرا على قدرته على ذلك على حكم واعترف المستأجر المذكور أنه مستمر وضع يده على الوكالة المذكورة الاستمرار الشرعى بتصادقها على ذلك واعترف الموجر المذكور بقبضه من المستأجر المذكور من الاجرة المذكورة معجلا ستمائة نصف وخمسة عشر نصفًا حسبما اعتاض في ذلك من الذهب السلطاني الجديد خمسة عشر دينارًا القبض الشرعى وتصادقا على ذلك ووكلا في الدعوى به وثبوتيه وطلب الحكم به التوكيل الشرعى فشهد عليهما بذلك في تاريخه • شهود الحال •

(المجموعة الوثائقية الثانية)

وثائق محفوظة بأرشفيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية ولم يسبق نشرها وهى تثبت وجود نشاط تجارى نسبى كانت تقوم به الجاليات الاوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط بالاسكندرية فى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، فى الفترة من ٢٤ شعبان سنة (٨٩٥٧ هـ — ١٥٥٠ م) الى ١٧ شعبان سنة (٨٩٥٨ هـ — ١٥٥١ م) •

(الوثيقة رقم ١٤)

- أرشفيف الشهر العقارى بالاسكندرية •
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) •
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية •
- من ٢٤ شعبان سنة (٨٩٥٧ هـ — ١٥٥٠ م) •
- الى ١٧ شعبان سنة (٨٩٥٨ هـ — ١٥٥١ م) •
- يوم السبت ٢١ من شوال سنة (٩٥٧ هـ — ١٥٥٠ م) •
- لذى سيدنا الشيخ شمس الدين الكتامى المالكى أيده الله تعالى •

— مسادة رقم ٤٣٥ ص ٩٢ •

— موضوع الوثيقة : تاجر مصرى يشتري كمية من العسل من تاجر

قبرصى •

ادعى الحاج أبو الخير بن محمد على عسرف بابن عويدات الزيات
بأنه اشترى على نقولا بن جرجى الفرنجى القبرصى أنه ابتاع منه ثمانية عشر
درف عسل نحل زنة ذلك عشرة قناطير زايد ناقص بخمسين دينارا ذهبيا
وأنة بعد صدور البيع منه باع ذلك لشخص آخر ويطالبه بذلك ويسأل
سواله عنه فسيل فأجاب بالانكار وطلب من المدعى البيان على ذلك وأحضر
الحاج أحمد بن محمد ومحمد بن أحمد ناصر الدين الفراج وسالهما للاشهاد
له بما يعلماه فى ذلك فاديا شهادتهما طبق الدعوى وألزم المدعى عليه بدفع
العسل وألزم المدعى بدفع الثمن وخرجا على ذلك شهود الحصال •

(الوثيقة رقم ١٥)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •

— دفتر سجل مبيعات رقم (١) •

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية •

— من ١٤ شعبان سنة (١٩٥٧ هـ — ١٥٥٠ م) •

— الى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ هـ — ١٥٥١ م) •

— يوم الثلاثاء ٢٤ شهر شوال سنة ١٩٥٧ هـ — ١٥٥٠ م) •

— مسادة رقم ٤٥٦ ص ٩٦ •

— لدى مولانا افندى دامت فضايله •

— موضوع الوثيقة : تاجر مصرى يبيع بهار وقرنفل وزنجبيل وجوزة

طبيب وقرفه لتاجر قبرصى •

تصادق الخواجا شمس الدين محمد السعوى المصرى وجوان
ابن كييل الفرنجى الكتيلان على صحة العقد الصالحة بينهما فى تاسع شهر تاريخه
على أن على الخواجا شمس الدين المذكور مرجان أربع صناديق ويسترد نصف
الكوم الذى بالحاصل معاوضة ذلك الثلث زنجبيل شرقى والثلث قرنفل
وأربعة قراريط جوزة طيب وأربعة قراريط قرفة سعر كل أربع قناطر وربع
من البهار المذكور وقنطار مرجان قصف وكل قنطارين وربع من البهار
بقنطار بسترد وكل قنطار ونصف زنجبيل بقنطار من الثلاثة اصناف البهار
والقرنفل ان عجب الفرنجى أخذه وان ما حجه عمل منه الصاج وتوافقاً
على أن الخواجا شمس الدين يدفع البهار المذكور قبل مضى ثلاثين يوماً ومتى
مضت الثلاثين يوماً ولم يدفع ذلك كان يشتري كل قنطار بمائة دينار
ويدفع للنصرانى ذلك وان يدفع له من باطن البهار المذكور خمسة وستون
رطلاً من العود كل رطل بثلاثة دنانير ونصف دينار حسبما توافقا وتراضيا
على ذلك كله التراضى الشرعى وذلك بحضور سيدنا الشيخ زين الدين
بركات بن فتح الدين الحنفى والخواجا أبو الغيث والخواجا نور الدين
القباقبى والحضرة السامية المعلم يوسف بن المعلم موسى بن اسحاق اليهودى
الريان العامل بالثغر وكلتا دموا قنصل طايقة الفرانسة والكتيلان بالثغر
جرى ذلك كذلك شهود الحال .

* * *

(الوثيقة رقم ١٦)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (٨٩٥٧ — ١٥٥٠م) .

- الى ١٧ شعبان سنة (٥٩٥٨ — ١٥٥١م) *
- يوم الثلاثاء ٢٩ من شهر شوال عام سبعة وخمسين وتسعمائة . *
- مادة رقم ٢٧٠ ص ٦٠ *
- موضوع الوثيقة : اتفاق بين ربان يهودى وقنصل طائفة الفرنسيين في الاسكندرية حول قرض بينهما وتجارة للكتان *
- اشهد عليه المعلم داحمين بن خليفة بن مسعود اليهودى الريان عرف بالكرار شهوده الاشهاد الشرعى أنه قبض وتسلم من كلتا دمو النصراني الفرنجى قنصل طائفة الفرنج الفرانسة والكتيلان بالثغر مبلغا قدره من الذهب السلطانى الجديد معاملة تاريخه بالديار المصرية اربعمائة دينار وأربعة عشر دينار القبض والتسلم الشرعيين وذلك آخر ما يستحقه في ذمته من قرض شرعى وثمان كتان ومعاملة بينهما قبل تاريخه بمستندات شرعية وسجلات حكومية وأوراق بخط يد القنصل المذكور وغير ذلك مما تقدم على تاريخه والى تاريخه حسبما شهد بذلك مكتوب التصديق المعترف الفرنجى المكتتب بالصالحية النجمية بمحكمة السادة المالكية لدى سيدنا الشيخ شرف الدين بن زكريا يحيى القرامى المالكى خليفة الحكم العرض بالديار المصرية ايد الله تعالى أحكامه وأحسن اليه المعين باقرار يعد من الاستحقاق الثابت المحكوم فيه الموجب لدى سيدنا الحاكم المشار اليه أعلاه المؤرخ لسابع عشر شهر الله المحرم الحرام من سنة تاريخه بتصديق محمد عطية بن رشيد المعروف بابن عرايس الترجمان الوكيل الشرعى عن كلتادمو القنصل المذكور الثابت توكيله عنه لدى سيدنا الحاكم المشار اليه بشهادة كل من منصور بن أحمد سلامة المعروف بابن الهليش وابراهيم بن موسى الانشادى له على ذلك وعلى أن موكله كلتادمو المذكور وصل الى ماكان تحت يد المعلم داحمين المذكور وهو أربعة شكاير زهر بنفسج

وسنة وعشرين خرقة جوخ دكيه وقفه مرجان وثلاثة وعشرين ذراع قرمزي
كمفا بالذراع الكبير وثمانية وستين ذراع بالذراع الصغير وخلعه الذي
كان مرتها تحت يد المعلم داحمين المذكور على المبلغ المذكور حسبما شهد
بذلك الفصل المكتوب بظاهر المستند المذكور بالمحكمة المشار اليها اعلاه
المؤرخ بتاسع عشرين من صفر سنة تاريخه الوصول الشرعي بالقبض
الشرعي ويريت ذمة كل من داحمين وكلتا دموا للاخر من ذلك ومن غيره
المبراه الشرعية بتصادق داحمين والوكيل المذكور على ذلك التصادق الشرعي
فشهد عليهما بذلك وبالتوكيل في ثبوته وطلب الحكم به توكيلا شرعيا في
تاريخه وخسبنا الله ونعم الوكيل شهود الحال •

* * *

(الوثيقة رقم ١٧)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية •
- دفتر سجل مبيعات رقم (١) •
- مادة رقم ٥٤٠ ص ١١٤ •
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية •
- من ١٤ شعبان سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨هـ — ١٥٥١م) •
- يوم الاربعاء ١٠ شهر ذي القعدة الحرام سنة (٩٥٧هـ — ١٥٥٠م) •
- لدى سيدنا الشيخ شمس الدين الكتامي المالكى أيده الله تعالى •
- موضوع الوثيقة : خلاف بين بحارين في الاسكندرية من جزيرة
رودس •

أدعى مانوا بن اليوا النصراني الروديسي على يانى بن جرجى
النصراني الروديسي أيضا أنه خدم معه في مركب هو مقدم رجالها من

مدة ثلاثة سنوات وأنه وضع يده على أجرته منها في السفرة الأولى
أربعمائة عثمانى وثلاثون عثمانياً وفي السفرة الثانية خمسة دنانير ذهباً
بندقياً والسفرة الثالثة أربع دنانير ذهباً ببندقياً ويطلبه بذلك ويسأل
سواله عنه فسيل فأجاب أنه سافر معه سقرة الى اسطنبول خصه فيها
بماية عثمانى وضع يده عليها في دين له عليه ثم اعترف له بثلاثين عثمانى
زايد على ذلك وطلب من المدعى البيان على ذلك فذكر أن لا بيعة له والتمس
عنه على ذلك محلف والزم المدعى عليه بدفع ذلك وخرجا على ذلك *
شهود الحال *

(الوثيقة رقم ١٨)

- ارتيف الشهر العتارى بالاسكندرية *
- دفتر سجل مبيعات رستم (١) *
- عمية محكمة اسكندرية شرعية *
- من ٢٤ شعبان سنة (١٢٥٧ هـ - ١٥٥٠ م) *
- الى ١٧ شعبان سنة (١٢٥٨ هـ - ١٥٥١ م) *
- يوم الجمعة ١٠ ربيع الثاني سنة (١٢٥٨ هـ - ١٥٥١ م) *
- مسادة رقم ١٣٩٤ ص ٣٢٨ *
- موضوع الوثيقة : تاجر من البندقية يستدين ثلاثين ديناراً من
الذهب البندقى من أحد التداقه في الاسكندرية *
- أشهد عليه امامى رابى المذكور اعلاه شهوده الاشهاد الشرعية أنه
قبض وتسلم من برد اس جوار زاده الفرنجى البندقى مبلغاً قدره
من المذهب البندقى المتخلص ثلاثون ديناراً قبضاً وتسلماً شرعيين اعترافه
بذلك التمسوده للاعراف الشرعية وذلك مما نه في دمه من فرض شرعى

سابق على تاريخه اقترضه منه بجزيرة جربا جملة اصله سبعون دينارا من الذهب الموصوف أعلاه وتاخر له باقى ذلك وهو اربعون دينارا نظرة ان يقوم له بذلك عند مضى خمسة وعشرون يوما وضمته زنيثو ابن نسيان البندقى فى عشرين دينارا من ذلك وطما زين نقوله الترجمان فى ثلاثة عشر دينارا وياكموا ابن فرانسك البندقى فى خمسة دنانير الضمان الشرعى فى الذمة والمال الضمان الشرعى المقبول بتصادقهم على ذلك التصديق الشرعى فشهد عليهم بذلك فى تاريخه شهود الحال .

✽ ✽ ✽

(الوثيقة رقم ١٩)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبايعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ — ١٥٥٠م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) .
- يوم الجمعة ١٠ ربيع الثانى سنة (٩٥٨ — ١٥٥١م) .
- مادة رقم ١٣٩٣ ص ٣٢٨ .
- موضوع الوثيقة : مواطن عثمانى يرد مبلغا لبحار من البندقية قدره ١٤٥ دينارا من الذهب البندقى .

اشهد عليه ماماي رايس بن قاسم بن حمزة الازميتى شهوده الاشهاد الشرعى أنه قبض وتسلم من لودان سوا بن برواميتو الفرنجى البندقى مبلغا قدره من الذهب البندقى الشخص مائة دينار وخمسة وأربعون دينارا قبضا وتسلما شرعيين وذلك هو القدر الذى كان أقرضه له بجزيرة

جربا من قبل تاريخه وبريت ذمته له من ذلك البراة الشرعية باعترافه بذلك لشهوده وتصادقا على ذلك التصادق الشرعى فشهد عليهما بذلك فى تاريخه شهود الحال •

(الوثيقة رقم ٢٠)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية •
- يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الثانى (٥٩٥٨ هـ — ١٥٥١ م) •
- مادة رقم ١٣٦٤ ص ٣٢٠ •
- موضوع الوثيقة : مملوك حبشى يطالب مواطن قبرصى بتسعة دنانير فى الاسكندرية •

ادعى مرجان بن عبد الله الحبشى الجنس مملوك على راييس على طماز وابن حاكموا الفرنجى القبرصى أنه يستحق فى ذمته مبلغا قدره من الذهب السلطانى الجديد معاملة تاريخه تسعة دنانير بدل قرض شرعى للاستحقاق الشرعى ويطلبه بذلك ويسال سواله عنه فسيل فاجاب الاعتراف فى ذلك وأن له تحت يد راييس اجرتة من اضايا الى الثغر وتوافقا على أن يقبضه من ذلك خمسة دنانير ويوخر الباقى الى أن يجتمع مع راييس ويحضر حصته وخرجا على ذلك شهود الحال • وحضر مرجان المذكور واعترف أنه وصل اليه جميع المبلغ المذكور وهو التسعة دنانير المذكورة الوصول الشرعى بالقبض الشرعى وبريت ذمته له من ذلك البراه وذكر أن المدعا عليه يستحق اجرتة عند محمد بن كنان الحنفى الرايس المذكور ستين نصفًا فشهد عليه بذلك فى ثالث عشر ربيع الثانى سنة تاريخه شهود الحال •

ثبت المصادر والمراجع
أولا : باللغة العربية
(أ) وثائق لم يسبق نشرها

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية ، محكمة اسكندرية الشرعية
سجل مبيعات رقم (١) ، من ٢٤ شعبان ٩٥٧هـ — ١٥٥٠م الى ١٧ شعبان
٩٥٨هـ — ١٥٥١م .

ب) مخطوطات :

— ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود (ت سنة ١٠٠٧هـ
— ٨ — ١٥٩٩م) : « الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية » مخطوطة
مصورة على ميكروفيلم محفوظة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت
رقم ٣٥٦ . وهى مصورة عن الاصل المحفوظ بمكتبة راغب باشا باستانبول
تحت رقم ٩٧٩ . وتتكون من جزئين فى ثلاثة مجلدات ، وتتناول تاريخ
اليمن منذ القدم حتى عهد السلطان العثمانى مراد الثالث (١٥٧٤ —
١٥٩٥م) .

ابن الديبع ، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى
(٨٦٦ — ٩٤٤هـ) و (١٤٦١ — ١٥٣٧م) : « الفضل المزيّد على بغية
المستفيد فى اخبار مدينة زبيد » ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب
بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح ، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ ،
وتتناول تاريخ اليمن فى الفترة الممتدة بين ٩٠١ — ٩٢٣هـ / ١٤٩٥ —
١٥١٧) .

— قرّة العيون فى اخبار اليمن الميمون « مخطوطه محفوظة بدار

الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٢٤ تاريخ وتتناول تاريخ اليمن حتى نهاية الدولة الطاهرية في سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) •

ابن اياس ، محمد بن أحمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، خمسة اجزاء ، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ •

— ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢ •

— بامخرمه ، أبو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ هـ — ١٥٤٠ م) : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، مخطوطه رقم ٨٨ بمكتبة بنى جامع باستانبول ، مصور برقم ١٦٧ تاريخ بدار الكتب بالقاهرة •

— عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى (ت ١٤٠٨ هـ — ١٦٣٨ م) : « روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح » مخطوطه مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح ، وهى مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ تاريخ م ، وتقع المخطوطة في ثلاثة اجزاء وتتناول تاريخ اليمن منذ مطلع القرن (١٠ هـ — ١٦ م) •

— قطب الدين النهروالى ، محمد بن أحمد الحنفى المكي ، مفتى مكة في عصره والمتوفى سنة ٩٨٨ هـ — ١٥٨٠ م : « البرق اليماني في الفتح العثماني » مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٤١٤ تاريخ ، وتتناول تاريخ اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجرى حتى نهاية

حملة سنان باشا الوزير على اليمن ، وقد أشرف على نشر المخطوطة حمد الجاسر لأول مرة عام ١٩٦٧ •

— الاعلام بأعلام بلد الله الحرام ، القاهرة ، المطبعة العسامة العثمانية ، ١٠٢٣ هـ (١٨٨١م) •

— الموزعي ، شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد — نائب الشريعة في مدينة تعز • لم يعرف تاريخ وفاته ويرجح أنه كتب مخطوطته في عهد السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ — ١٦٢٢م) « الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٢٣٧٩ وهي منقولة من نسخة الميكروفيلم المحفوظ بمعهد المحفوظات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، الميكروفيلم مصور من نسخة مكتبة علي امير باستانبول •

— يحيى بن الحسين بن الامام القاسم بن محمد (ت سنة ١١٠٠ هـ — ١٦٨٩م) : « أنباء ابناء الزمن في التاريخ اليمن » مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ ، وتتناول عرض الاحداث منذ الهجرة النبوية حتى عام ١٠٥٦ هـ (١٦٣٧م) •

ج (بحوث ومؤلفات منشورة :

— ابراهيم شحاته حسن (دكتور) :

— وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب ٩٨٦ هـ — ١٥٧٨م قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية بالقرن السادس عشر الميلادي ، دار الثقافة — الدار البيضاء — ١٩٧٩ •

— اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠ — ١٩٤٧) ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨١ •

— ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر في عصر دولة المماليك
الجراسية (١٣٨٢ — ١٥١٧) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠ •

— اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج٢ ، الطبعة
الاولى ١٣١٤ هـ •

— أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، من القرن الرابع
عشر قبل الميلاد الى القرن العشرين : الطبعة الاولى ، مطبعة السنة المحمدية
القاهرة ١٩٦٣ •

— احمد مختار العبادي (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب
والاندلس الاسكندرية ١٩٦٨ •

— بانيكار ، ك • م : آسيا والسيطرة الغربية ، تعريب عبد العزيز
جاويد ، ومراجعة أحمد خاكي ، دار المعارف بالقاهرة •

— توفيق اسكندر (دكتور) : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية
في العهد الوسيط ، بحث مستخرج من المجلد السادس من مجلة الجمعية
المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٧ •

— بحوث في التاريخ الاقتصادي (مترجم) الجمعية المصرية
للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٦١ •

— الجغرافى ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ،
مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٥١ •

— جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم
الاستعمار ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ •

- جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية ،
نقله الى العربية يوسف كمال ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٢٧ •
- جيرار (ب • س •) : الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن
عشر ، وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة
١٩٧٨ •
- حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولي العام في وقت السلم ،
القاهرة ١٩٦٢ •
- حسن عثمان (دكتور) : تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ —
١٧٩٨) في المجلد في التاريخ المصري — القاهرة ١٩٤٢ •
- زكي صالح (دكتور) : مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد
العثماني ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة
الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٦ •
- سعاد ماهر (دكتور) : البحرية في مصر الاسلامية وآثارها
الباقية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر •
- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الاثر المغربي والاندلسي في
المجتمع السكندري في العصور الاسلامية الوسطى ، ضمن أبحاث مجتمع
الاسكندرية عبر العصور ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥ •
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر في عصر دولة سلاطين
المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ •
- المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ •
- صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى ، محاضرة القيت
بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ •

- التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك (٨٧٢ — ٩٢٣ هـ /
١٤٦٨ — ١٥١٧ م) في ضوء كتابات ابن اياس ، الندوة التي نظمتها
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الاعلى لرعاية
الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ١٦ — ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ •
- العصر المماليكى في مصر والشام ، الطبعة الثانية ، دار النهضة
العربية القاهرة ١٩٧٦ •
- السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمن
١٥٣٨ — ١٦٣٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩ •
- شارل ديل : البندقية جمهورية الارستقراطية ، تعريب أحمد
عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ •
- شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المغرب العربى الكبير فى العصر
الحديث (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب) ، ط ١ ، مكتبة الانجلو
المصرية بالقاهرة ١٩٧٧ •
- صلاح أحمد هريدى على (دكتور) : دور الصعيد فى مصر
مصر العثمانية (٩٢٣ — ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ — ١٧٩٨) ، دار المعارف
الاسكندرية ١٩٨٤ •
- الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد فى العصر العثمانى
دراسة وثائقية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان
الثلاثون والواحد والثلاثون ، ١٩٨٣ — ١٩٨٤ •
- صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية فى الخليج العربى •
مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٦٥ •

— المغرب العربى ، دراسة فى تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة ،
الجزائر وتونس ، المغرب الاقصى ، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ،
١٩٨٠ •

عبد الجليل التميمى (دكتور) : الخلفية الدينية للصراع الاسباني
العثمانى على الايلات المغربية فى القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية
المغربية ، عدد (١٠ — ١١) تونس ، يناير ١٩٧٨ •

— عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، دار الثقافة
ببيروت •

— عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : — المغاربة فى
مصر فى العصر العثمانى ١٥١٧ — ١٧٩٨ دراسة فى تأثير الجالية المغربية
من خلال وثائق المحاكم المصرية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ١٩٨٢ •
— معالم التاريخ الاوربى الحديث والمعاصر ، دار المتنبي للنشر
والتوزيع الدوحة ، ١٩٨٢ •

— العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية ابان العصر
العثمانى ١٥١٧ — ١٧٩٨ ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، جامعة
الكويت ، العدد التاسع ، المجلد الثالث ١٩٨٣ •

— عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوروبا فى مطلع العصور
الحديثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، القاهرة
١٩٧٧ •

— الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ثلاثة أجزاء ، مكتبة
الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٣ •

— عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر السيوطى ، بحوث ألقىت فى

الندوة التي أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ •

— طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، دراسة للأسباب التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨

— العقيلي ، محمد بن أحمد عيسى : تاريخ المخلافا السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، جزآن ، الجزء الاول طبع بمطابع الرياض (١٩٥٨/١٣٧٨) ، الجزء الثانى طبع بمطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة (١٣٨٠هـ — ١٩٦١م) •

— عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : دراسات فى تاريخ العرب الحديث دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٦ •

— فاروق عثمان أباطه (دكتور) : التنافس الدولى فى جنوب البحر الاحمر فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ندوة البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الاسبوع العلمى الثالث ١٠ — ١٥ مارس ١٩٧٩ ، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٨٠ •

— قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى دراسة وثائقية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ •

— ليلى صباغ (دكتورة) : الوجود المغربى فى المشرق المتوسط فى العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٧٨٥ ، تونس ، يناير ١٩٧٧ •

— ليلي عبد اللطيف أحمد (دكتورة): الإدارة في مصر في العصر العثماني
مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٨ •

— دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام ابان العصر العثماني ،
مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٧٩ •

— محمد احمد أمين (دكتور) : تفويض من عصر العادل طومان باي
« صانع السلاطين » ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد
السابع والعشرون ١٩٨١ •

— محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية .
دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩ •

— محمد عبد العال أحمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملاح فاسكو
دي جاما ، مجلة معهد الدراسات والبحوث الافريقية بجامعة القاهرة ،
العدد الخامس ١٩٧٦ •

— البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ، نصوص
جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمنى بامخرمة كما سجلها
في مخطوط « قلادة النحر » دراسة وتحقيق ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، الاسكندرية ١٩٨٠ •

— محمد عبد اللطيف البحراوي (دكتور) : فتح العثمانيين عدن
وانتقال التوازن الدولي من البر الى البحر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة
١٩٧٩ •

— محمد محمود السروجي (دكتور) : سياسة مصر العربية في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤ — ١٨٦٦ ، مجلة كلية
الاداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد التاسع ، ديسمبر ١٩٥٥ •

- الملبارى ، زين الدين المعبدى : تحفة المجاهدين فى بعض أحـوال
البرتـكاليين ، نشرة داود لويس لشبونة ١٨٩٨ •
- نعيم زكى فهمى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين
الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
القاهرة ١٩٧٣ •
- نقولا زيادة (دكتور) : الطرق التجارية فى العصور الوسطى ، مقال
نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة السادسة ، العددان ٧١ — ٧٢ •
سبتمبر — أكتوبر ١٩٨٤ ، بيروت •
- الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة
العرب ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥٣ •
- الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المسمى فرجة
الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ط ٢ ، مطبعة حجازى بالقاهرة
١٩٤٧ •

ثانياً — مصادر ومراجع باللغات الأجنبية

(أ) وثائق منشورة

- Aitchison, C. U.: A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads relating to India and the Neighbouring Countries, 12 Vols., Calcutta 1892.
- Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East, 2. Vols, New York, 1956.

(ب) بحوث ومؤلفات منشورة

- Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the years 1520 - 1527, Translated and Edited by Lord Stanley of Alderly London, Haklyot Society, 1881.
- Atkinson, W. C.: A History of Spain and Portugal, Pelican B. 1970.
- Charles, Roux, F. : Autour d'une route, L'Angleterre, L'Isthme de Suez T. 1 - 2, Paris 1901.
- Combe, E. : Precis de, l'Histoire d' Egypte, T. 3. L'Egyrte Ottoman de la Conquet par Selim I. 1517 a l'Arrivee de Bonaparte 1798 .
- Coupland, R. : East Africa and Its Invaders, Oxford, Clarendon press, 1938.
- Crouchley, M. E.: The Economic Development of Modern iEgyrt. Longmans, Green and Co., London, 1938.
- Denison, R. E. : The Portuguese in India and Arabia, J. R. A. S., part 1., January 1922
- Enpstein, M. : Early History of the Levant Company.
- Ferrand, D. : Le Pilote Arabe de Vasco de Gama et les instructions nautques des Arabes au XVe Siecle, Annales de geographie, Paris, 1922.

- Fisher, H. A. L. : *History of Europe*, London 1945.
- Hammer, J. : *Histoire de l'Empire Ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours* ; Tomes 18, Paris, 1836.
- Heyd, W. : *Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age*, T. I. & II. Leipzig 1925.
- Holt, P. M. : *Egypt and the Fertile Crescent 1516 - 1922, A Political History* Cornell Univ. Press. New York, 1969.
- Hoskins, H. L. : *British Routes to India*, London, 1928.
- «The Growth of British Interest in the Route to India» Tufts Coll., Mass., U. S. A. *Journal of Indian History*, II.
- Howe, Sonia, E. : *In quest of Spices*, London 1946.
- Hunter, F. M. : *An account of the British settlement at Aden*, London, Turbner and Co., 1877.
- Johnston, H. : *History of the Colonization of Africa by Alien races*, Cambridge, 1899.
- Kammerer, A. : *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité*. Le Caire, l'Imprimerie de l'Institut Français d'Archeologie Orientale, pour la Société Royale de Géographie d'Égypte, 1929, - 1935.
- Lane -Poole, S. :
- *Medieval India Under Mohammedan Rule*. D. 712. 1764. London 1925.
- *A History of Egypt in the Middle Ages*, London 1936.
- Marston, T. E. : *Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, 1800 - 1878*. The Shoe String Press, Inc. Hamden, Connecticut, U. S. A.
- Phillips, C. H. : *The East India Company 1784 - 1834*.
- Playfair, R. L. : *A History of Arabia Felix or Yemen*. Selections from the Records of the Bombay Government, New Series, XLIX.

- Plowden, W.: Travels in Abyssinia and the Galla Country, London,, Longmans, 1868.
- Prestage, E. : The Portuguese Pioneers, London, 1962.
- Rabbath, E. : Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans 'evolution duDroit International, Societe Egyptienne de Droit International, Janvier,1962.
- Ross, E.D. : The Protuguese in India and Arabia between 1507 -1517, Journal of the Royal Asiatic Society, London, Part IV, October 1921.
- Sauger, R. H.: The Arabian Peninsula, Cornell Univ. Pr., New York, 1954.
- Scott, H. : In the High Jemen, Murray, 1942.
- Serjeant, R. B. : The Portuguese off the South Arabian Coast, Hadrami Chronicles with yemeni and European Accounts of Dutch Pirates off Mocha in 17 th Century, Oxford, Clarendon Press, 1963.
- Shaw, S. J.: The financial and administrative organization and deve-lopment of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, Princeton, New Jersy; 1964.
- Stephens, H. M.: Portugal, London, T. Fisher Unwin, 3 Edition, 1891.
- Strandes, J.: The Portuguese period in East Aftrica, Transiated by Wallwork, Nairobi.
- Stripling, G. W. F. : The Ottoman Turks and the Arabs, 1511- 1574, University of Illinois Press.,Urbans, U.S.A.
- Strong, A. : The History of kilwa, Journal of the Royal Asiatic Society, London, 1895.
- Wiet, G. : L'Égypte (Arabe, Histoire de al Nation Egyptienne), T. IV. paris, 1934 .
- Wilson, A. T.: The persian Gulf, London 1954.
- Ziada, M. M. : Foreign Relations of Egyptin the Fifteenth Century, 2 Vols, Liverpool 1930.

محتوى البحث

— مقدمة :

١ هدف البحث ، ومنهجه ، ومصادره .

— الفصل الاول :

التجارة العالمية عبر مصر وعالم البحر المتوسط قبل تحولها
الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس
عشر الميلادى

— الفصل الثانى :

دور البرتغاليين في تحويل التجارة العالمية الى طريق رأس
الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى •

— الفصل الثالث :

أثر تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح
على مصر وعالم البحر المتوسط اثناء القرن السادس
عشر الميلادى :

٤٧ أولا — الاثر الاقتصادى

٦٤ ثانيا — الاثر السياسى والدبلوماسى •

٩٣ ثالثا — الاثر الاستراتيجى فى البحر المتوسط والبحار
الشرقية

— الملحق :

عشرون وثيقة مختارة من ارشيف الشهر العقارى
بالاسكندرية تخص محكمة الاسكندرية الشرعية وتتعلق
بالنشاط التجارى للمغاربة والاوروبيين فى الاسكندرية فى
منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى •

١٣٩

١٦٥

— ثبت المصادر والمراجع

١٩٩٤ / ١٩١٩	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4348-5	الترقيم الدولي

٣ / ٩٣ / ٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

1000

342551